

٣

سلسلة تصحيح المفاهيم

الاستشراق والتبشير

قراءة تاريخية موجزة

أ.د. محمد السيد الجليند



الاستشراق والتبشير
قراءة تاريخية موجزة

**الاستشراق والتبشير
قراءة تاريخية موجزة**

الأستاذ الدكتور

محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية

دار العلوم - جامعة القاهرة

مدير مركز الدراسات والبحوث الإسلامية - جامعة القاهرة

الناشر

دار فباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبدعزيم غريب

الكتاب : " الإستشراق والتبشير قراءة تاريخية موجزة "

المؤلف : د. محمد السيد الجنيد

تاريخ النشر : ١٩٩٩م

حقوق الطبع والترجمة والاقتباس محفوظة

الناشر : دار فباء للطباعة والنشر والتوزيع

عبد غريب

شركة مساهمة مصرية

الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون

الدور الأول - شقة ٦

ت : ، ٢٤٧٤٠٣٨ ، ٢٤٠١٧٤٣

فاكس : ٢٤٠١٧٤٤

التوزيع : ١٠ شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

المركز الرئيسي : مدينة العاشر من رمضان

المنطقة الصناعية (C1)

ت : ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)

رقم الإيداع : ٩٩/٢٤٦٧

الترقيم الدولي : ISBN

977-303-091-1

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُتَكَلِّمًا

إن الحمد لله. نحمده ونستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
ومن سيئات أعمالنا والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه ومن أهدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد،

هذه دراسة موجزة عن الاستشراق والتبشير تلبية لرغبة
عزيزة من كلية الشريعة بجامعة قطر. وصادفت هذه الرغبة هوى
فى نفسى، خاصة بعد أن أثمرت جهود المستشرقين والمنصرين فى
بعض أقطارنا العربية بعض ثمارها على المستوى الثقافى والفكرى
فى بعض منها وعلى المستوى التعليمى والإعلامى فى
بعضها الآخر.

وسمعنا وقرأنا من يردد آراء المستشرقين فى طلب المساواة
بين الرجل والمرأة فى الميراث والطلاق وتعدد الأزواج وتكوين
الأسرة غير التقليدية.

ولست ممن يقولون إن الاستشراق أو المستشرقين يجمعهم
حكم واحد، أو كلهم على رأى واحد فى موقفهم من الإسلام وقضاياها.
لا. بل إن الإنصاف يقضى علينا أن نقول إن منهم منصفين للإسلام
ولقضايا المسلمين. ولقد أفدنا من دراستهم الكثيرة حول قضايا الإسلام
وينبغى أن لا ننكر ذلك ولا نشك فيه. ولكن مما لا أشك فيه أن

الاستشراق والتصوير كانا من أخطر الوسائل التي سلكها الاستعمار في تنفيذ سياسته في العالم الإسلامي، ولا أشك في أنهما وجهان لعملة واحدة. وهو موقف الصليبية المعاصرة من العالم الإسلامي أقول الصليبية ولا أقول المسيحية وينبغي أن يكون القارئ على وعى بالفروق الجوهرية بينهما.

لأن المسيحية دين نؤمن بما نزل منه على عيسى عليه السلام. أما الصليبية المعاصرة. فهي موقف وأيديولوجية. هي تكوين سياسى وثقافى نرفضه ونحاربه نرفضه كاتجاه ثقافى يهدف إلى إحتواء الإسلام بحضارته وثقافته، الصليبية موقف واتجاه يهدف إلى تدوير حضارتنا وخصوصيتنا فى حضارة الغرب وثقافته، ولعل رؤوس الفتن التي تطل علينا بين الحين والآخر تحت ستار التنزير والتقدمية هي من آثار جهود هاتين الظاهرتين، وهذه الدراسة الموجزة التي أقدمها تلبية لرغبة كلية الشريعة أمل أن تكون محققة للمطلوب منها. توخينا فيها الإيجاز غير المخل بالمقصود مكتفين بإثارة القضايا الكبرى التي تمثل المحاور العامة والأهداف الكبرى والمقصودة، رغبة فى توضيحها وتعريفها لنكشف النقاب عن هذه الروح الصليبية التي يتعامل بها الغرب مع العالم الإسلامى. وليس ذلك من باب إثارة الأحقاد وزرع الضغائن، وإنما من باب تجلية المواقف وكشف الحقائق. تناولنا خلال القسم الأول ظاهرة الأستشراق وارتباطها تاريخيا بالحروب الصليبية ثم بينا موقف المستشرقين من أهم القضايا الكبرى، القرآن، النبى (والفكر الإسلامى) مؤيدين ذلك بنصوصهم

كلما أمكن ذلك ثم أوضحنا الأخطاء التاريخية والمنهجية والزيغ والافتراء الذى وقعوا فيه بسبب بعدهم عن روح الإنصاف وعدم التحلى بطلب الحق وقصده.

وفى القسم الثانى تناولنا قضية التصير فى العالم الإسلامى وركزنا بصفة خاصة على نشاط المنصرين فى الجزيرة العربية وبيننا وسائلهم فى التصير وسياستهم فى الالتفاف حول الحرمين الشريفين فى الجزيرة العربية وحول دور الأزهر الشريف فى مصر.

ونحن نعلم سلفاً أن طبيعة هذه الدراسة تحتاج إلى التفصيل والشرح رغبة فى إزالة الشبهات التى قد يثيرها هذا أو ذاك حول هذا الموضوع الذى نعترف بأهميته وخطورته معاً، ولكن حسبنا فى هذا المقام أن تجيء هذه الدراسة وافية بالمطلوب منها، وأن تحقق الغرض الذى انتدبنا له ونحيل القارئ الكريم إلى المطولات والمصادر التاريخية التى تحقق مقصوده فى معرفة التفصيلات ونلتمس منه العذر فى قصدنا إلى الإيجاز والاختصار. والله من وراء القصد ونسأله سبحانه أن يجعل عملنا كله خالصاً لوجه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

محمد الجليند

١٤ رجب سنة ١٤١٣هـ

٧ ديسمبر سنة ١٩٩٥م

الاستشراق والمستشرقون

ما هو الاستشراق؟ :

أطلق لفظ الاستشراق على تلك المحاولة التي قام ويقوم بها بعض مفكرى الغرب للوقوف على معالم الفكر الإسلامى وحضارته وثقافة الشرق وعلومه.

كما أطلق لفظ مستشرق على المفكرين المشتغلين بدراسة علوم الشرق وتاريخه وحضارته وأوضاعه الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن المفيد أن يعرف القارئ الكريم أن مصطلح الشرق يرجع فى أصل وضعه إلى مفكرى الغرب، فهم الذين قسموا العالم إلى شرق وغرب، وقسموا الشرق إلى شرق أدنى وأوسط وأقصى، ويطلق لفظ الشرق عادة على المنطقة العربية وشعوب آسيا وأفريقيا، أما لفظ الشرق الأوسط فقط فيطلق عادة على المنطقة العربية فقط، وفى العصر الحاضر أطلق لفظ العالم الثالث على تلك الشعوب التي كان يطلق عليها فى الماضى العالم الشرقى، أو دول الشرق.

والذى يهمننا هنا بالدرجة الأولى هو ما يتعلق بمنطقة الشرق الأوسط فقط أو المنطقة العربية بالذات، ذلك أن متابعة جهود المستشرقين خارج المنطقة العربية عمل فوق الطاقة الشخصية وليس ذلك داخلاً فى خطتنا من هذه الدراسة ولا يمثل ذلك هدفاً لنا الآن، كما أن دراسات المستشرقين المتعلقة بشعوب العالم الإسلامى من



غير العرب كالهند وباكستان وأندونيسيا ودول شرق وجنوب شرق آسيا وأفريقيا، كانت في معظم أحوالها تسير على نفس المنهج الطريقة التي كانوا يسلكونها في منطقة العالم العربي، وكان الهدف من محاولات المستشرقين وجهودهم في الدراسات التي قاموا بها في هذه المناطق كلها هو تطوير المد الإسلامي والعمل على انحساره ووقف نموه المطرد بين أبناء هذه الشعوب المتباعدة وإن كانت أعمالهم تبدو في معظم أحوالها في ثوب علمي أو أكاديمي، فإن ذلك ينبغي ألا يحجب عن أعيننا نواياهم الخفية التي صرح بها معظمهم في المؤلفات والمؤتمرات العلمية التي كانت تعقد بين الحين والحين لهذا الغرض.

أ- النشأة والتاريخ :

علاقة الاستشراق بالحروب الصليبية :

يربط كثير من الباحثين المهتمين بالدراسات الاستشراقية بين نشأة الاستشراق وبداية ظهوره وذلك الفشل الذريع الذي منيت به أوروبا في الحروب الصليبية على يد صلاح الدين الأيوبي، ذلك أن الحملات الصليبية لم تحقق للغرب طموحاته ولم تسعفه بالسيطرة على الشعوب العربية واستخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين، ومن الجدير بالذكر أن الحملات الصليبية المتكررة على العالم الإسلامي قد رفعت الصليب شعاراً لهذه الحرب لتعلن للعالم الأوربي أنها حرب دينية مقدسة من ناحية أسبابها ودوافعها، ومن ناحية غايتها

وأهدافها، وما دامت هذه الحملات لم تحقق الهدف الذى قامت من أجله فلا بد من البحث عن بديل آخر، ولا بد من التفكير فى وسيلة أخرى - ربما كانت طويلة الأجل - تحقق لهم هدفهم من السيطرة على شعوب المنطقة وإخضاع العالم الإسلامى لنفوذهم الثقافى والحضارى ثم السياسى والاقتصادى وكان الاستشراق هو ذلك البديل المتاح فى حينها، ليحقق أحلام الغرب وأهدافه.

وإذا كانت فكرة السيطرة على العالم الإسلامى تمثل الهدف والغاية، من نشأة الاستشراق فإن ذلك لا يمنع أن يتجاوز الاستشراق هذا الهدف فى مسيرته التاريخية إلى أهداف أخرى علمية أو حضارية أو ثقافية، لكن الذى أود أن ألفت النظر إليه أن الهدف الأسمى للاستشراق لم يغب عن ذهن المستشرقين لحظة واحدة، بل كان هو المحور والأساس الذى دارت حوله معظم دراسات المستشرقين التى قاموا بها حول الشرق وعلومه، وقد تختلف درجة وضوح هذا الهدف ووسيلة التعبير عنه من شخص إلى آخر ومن جيل إلى جيل من المستشرقين إلا أن ذلك لم يكن سببه غياب الهدف عن ذهن هذا المستشرق أو ذاك، وإنما كان سببه يرجع إلى حظ المستشرق نفسه من الثقافة العربية ودرجة اتقانه لها، وذكائه فى أسلوب التعبير عن غايته وهدفه، تصريحاً أو تلميحاً.

ولقد تغير أسلوب المواجهة بين العالم الإسلامى والغرب بعد الحروب الصليبية فاحتلت الكلمة والحوار واستخدام المنهج العلمى

المكانة الأولى فى دراسة نفسية الشرق لمعرفة الأسلوب الأمثل للمواجهة وكان ذلك بديلاً عن المواجهة بالسلاح والقوة العسكرية.

ولقد فرض هذا الأسلوب الجديد فى المواجهة العكوف على دراسة أحوال الشرق؛ لغته ودينه، حضارته وتاريخه، فلسفته وعلومه، عقيدته وأصولها، وأن توضع المناهج الدراسية المناسبة لاستكشاف عوامل هذه القوة الصلبة التى تكسرت عليها تلك الحملات الصليبية المتكررة، ومحاولة فهمها وتحليلها نفسياً لمواجهةها بأسلوب يختلف تماماً عن المواجهة العسكرية.

ولما كان القائمون على أمر الحروب الصليبية والمحركون لها هم رجال الكنيسة وسدنتها، فإن ذلك جعل رجال الكنيسة فى طليعة المهتمين بأمر الشرق ودراسة أحواله، ومن هنا فإن طليعة المستشرقين كانوا فى معظمهم من القساوسة ورجال الدين المسيحي.

بداية الاستشراق وأسبابه :

١- لا نستطيع الجزم بتحديد من هو أول شخص نبئت فى ذهنه فكرة الاستشراق وغزو الشرق من الداخل، إلا أن معظم المحققين لهذه المسألة يكادون يجمعون على أن بداية هذه الحركة نشأت فى نهاية القرن العاشر الميلادى وأوائل القرن الحادى عشر بفرنسا، وإن الراهب الفرنسى (جرير دى أولياك ٩٣٨-١٠٠٣م) كان من أوائل المشتغلين بعلوم الشرق، وارتبطت باسمه بداية حركة

الاستشراق، حيث رحل من فرنسا إلى أسبانيا مهد الحضارة الإسلامية في وقته، فتعلم فيها اللغة العربية ووقف على علوم العرب في الرياضيات والطب والكيمياء والفلسفة، كما قرأ بعض العلوم الدينية حتى قيل إنه كان أوسع علماء عصره معرفة بعلوم العرب، وخاصة في الرياضيات والفلك، ثم ارتحل إلى روما حيث اشتهر من بين أقرانه بمعرفته الواسعة باللغة العربية وعلومها، وانتخب حيراً أعظم باسم سلفستر الثاني (٩٩٩-١٠٠٣م) وكان بذلك أول بابا فرنسي، واستطاع من خلال منصبه الجديد أن ينشئ مدرستين لتدريس اللغة العربية وعلومها، وكانت الأولى في روما مقر البابوية، والثانية في وطنه الأصلي "دايمس"، ثم أنشأ بعد ذلك مدرسة ثالثة تسمى مدرسة "شارتر" وقام هذا الراهب الفرنسي بترجمة بعض الكتب العربية في الرياضة والفلك، وإليه يرجع الفضل في انتشار الأعداد العربية في أوروبا التي كانت ينقصها رقم الصفر، ولم تكن تعرفه حتى نقله إليها (جيرير دي أولياك) من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية.

٢- ثم جاء بعده (قسطنطين الأفريقي ١٠٨٧)، (بطرس المحترم ١٠٩٢-١١٥٦م) و (أرجو دي سانتلا ١١٠٧م) ثم (جيرارد كريمون ١١١٤-١١٨٧م) ثم تتابع رواد هذه الحركة وتكاثرت أعدادهم واختلفت جنسياتهم بحيث شملت معظم دول أوروبا

وأمریکا فی العصر الحديث، وكان هؤلاء إذا عادوا إلى بلادهم عملوا على نشر علوم العرب بين أبناء وطنهم إلى أن تطور الأمور بعد ذلك حيث أنشأت الحكومات الأوروبية في جامعاتها أقساماً مستقلة لتدريس اللغة العربية وعلوم الشرق.

٣- ثم أخذت بعد ذلك حركة الاستشراق تنمو في أطراد مستمر حتى سنة ١٣١١-١٣١٢م، حيث عقد مؤتمر فينا الكنسي وكان من أهم قراراته إنشاء كرسي للغة العبرية والعربية في معظم جامعات أوروبا، فتأسس كرسي اللغة العربية في روما على نفقة الفاتيكان، وفي باريس على نفقة ملك فرنسا، وفي إكسفر د على نفقة ملك إنجلترا، ويعتبر كثير من المؤرخين لحركة الاستشراق أن هذا المؤتمر هو البداية المنظمة وشبه الرسمية للاستشراق، وما كان قبل ذلك إنما كان بمثابة الإرهاص لميلاد هذه الحركة، وتبع ذلك انتشار المدارس والمعاهد الاستشراقية المعنية بدراسة الشرق وعلومه الإسلامية بصفة خاصة.

الدوافع والأهداف :

مما لا ريب فيه أن الحروب الصليبية قد تركت آثارها السيئة على نفسية الغرب، لكنها في الوقت نفسه قد فتحت أعين الغرب على الشرق وما فيه من علوم ومعارف وحضارة، ولقد واكب ذلك ما شهدته أوروبا من حركة الإصلاح الديني وموقف الكنيسة من العلم والعلماء، ولقد فرضت هذه الظروف الجديدة على الكنيسة أن تعيد ترتيب أوراقها، وأن تعيد النظر في المفاهيم الدينية التي تتعامل بها

مع العلماء، بحيث تعيد تأويل هذه المفاهيم بما لا يتعارض مع العلم، وترتب على هذه النزعة الإصلاحية أن أحس الغرب بحاجته إلى التعرف على المزيد من علوم الشرق وثقافته، ومن هذه المواقف وغيرها كانت الدوافع والأهداف وراء حركة الاستشراق، ونستطيع أن نوجز أهم هذه الدوافع كما أشار إليها المفكرون فيما يلي: (١)

١- إثارة الخلافات الدينية :

لا يمكن إرجاع ظاهرة الاستشراق إلى عامل واحد فقط وذلك نظراً لاتساع نشاطه وتعدد أهدافه، ولكن الذى لا أشك فيه هو سيطرة السبب الدينى على سائر أسبابه الأخرى، وفى هذه الدراسة الموجزة من النصوص ما يدل بيقين على صدق ما نقول من سيطرة السبب الدينى وهيمنته على الأسباب الأخرى، ولقد سلك المستشرقون وسائل شتى لتحقيق هذا الهدف الدينى، لكن كان أخطرها بلاشك التركيز على إثارة القضايا الخلاقية فى الفكر الإسلامى والعمل على إحياء الآراء الشاذة للفرق المغالية ليشغل المسلمون أنفسهم بهاعن التفكير فى عظام الأمور، فعمدوا إلى إثارة الخلافات المذهبية والصوفية، كما ركزوا فى دراساتهم على إحياء ألوان معينة من التراث الصوفى للغلاة من الصوفية فتخصص الكثير منهم فى تراث ابن عربى وابن سبعين والحلاج وذى النون المصرى، وحاول

(١) راجع فى تفصيلات هذه الأسباب كتاب الفكر الإسلامى وصلته بالاستعمار، د. محمد البهى، الاستشراق والتبشير د. عمر فروخ، الاستشراق والمستشرقون نجيب العفيفى.

بعضهم إحياء الخصومات التاريخية بين المعتزلة والأشاعرة أو بين المعتزلة والسلف.

أ- وهذا الهدف قد أعلنه المستشرقون قديماً وحديثاً ولم يجدوا في ذلك حرجاً ولا عيباً، ولكن الحرج والعيب من وجهة نظرنا أن يتشكك بعض الباحثين من المسلمين في صدق الهدف ويشككوا فيه، ولقد صرح المفكر الفرنسي "هانوتو" بعد أن إحتلت فرنسا الجزائر بما يلي : لقد أصبحنا اليوم إزاء الإسلام والمسألة الإسلامية" وكانت هذه العبارة عنواناً لمقال كبير نشر مترجماً باللغة العربية في جريدة المؤيد المصرية ونقل أطرافاً منه - المرحوم الدكتور محمد البهي - في كتابه عن الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار"، ومما جاء فيه: إنه لا يوجد مكان على ظهر الأرض إلا واجتاز الإسلام فيه حدوده منتشراً في الآفاق، فهو الدين الوحيد الذي أمكن انتحال الناس له زمراً وأفواجاً، وهو الدين الوحيد الذي تفوق شدة الميل إليه والتدين به كل ميل إلى اعنناق دين سواه.. إن هذا الدين قائم الدعائم ثابت الأركان في أوروبا عينها .. لقد صارت فرنسا في كل مكان في صلة مباشرة مع الإسلام، بل صارت في صدر الإسلام وكبده.. ليس الإسلام في داخلنا فقط بل هو خارج عنا أيضاً، قريب منا في مراكش.. قريب منا في طرابلس الغرب.. قريب منا في مصر.. وهو شائع ومنتشر في آسيا.. ولا يزال الهلال

(الإسلامى) ينتهى طرفاه من جهة بمدينة القسطنطينية ومن جهة أخرى ببلدة فاس فى المغرب الأقصى معانقاً بذلك الغرب كله.

ويقول هانوتو : إن هذا الدين قائم فى الآستانة حيث عجزت الشعوب المسيحية عن استئصاله من هذا الركن المنيع الذى يحكم منه على البحار الشرقية ويفصل الدول الغربية بعضها عن بعض شطرين. ثم يعلن "هانوتو" صراحة أنه لابد من العمل على تفكيك تلك الرابطة التى تجمع بين المسلمين شرقاً وغرباً على سطح المعمورة فتجعل منهم أمة واحدة، وهى رابطة الدين، لابد من العمل على اضعاف هذه الروح السائدة التى تحرك المسلمين من سباتهم.. إنهم متى اقتربوا من الكعبة، من البيت الحرام.. من ماء زمزم المقدس، من الحجر الأسود.. وحققوا بأنفسهم أمنيتهم العزيزة التى استحثتهم على ترك بلادهم فى أقصى مدن العالم للفوز بجواز الخالق فى بيته الحرام اشتعلت جذوة الحمية الدينية فى قلوبهم.. إن رابطة الإخاء الجامعة بين أفراد المسلمين كفيلة بأن تجعل المسلم فى شرق الأرض يهب لنصرة المسلم فى غربها فهى عامل مؤرق لفرنسا فى المستعمرات التى تخضع لها.

ومن هنا فإن العمل على إضعاف هذه الرابطة بين المسلمين كانت ولا زالت تمثل غاية وهدفاً لنشاط المستشرقين؛ وما كتبه "هانوتو" صرح به غيره. لقد كتب "كيمون" المستشرق الفرنسى فى كتابه بثولوجيا الإسلام عن المسلمين وعن رسولهم ﷺ بمثل ما صرح

به "هانوتو" وزيادة، حيث وصف الرسول الإسلام بصفات يخجل القلم عن تسطيرها.

ب- إذا أضفنا إلى ذلك أن أول من اشتغل بعلم الشرق بحثاً ودراسة كان راهباً وقسيساً ثم بابا لروما فيما بعد، كما أن معظم المشتغلين بعلم الشرق قديماً وحديثاً، معظمهم من رجال الكهنوت المسيحي واليهودي، ولا يمكن أن نتصور هؤلاء مجردين من عواطفهم الدينية، بل إنهم كانوا مدفوعين إلى هذا اللون من الدراسة بدافع الانتصار لدينهم، إن هذه النوايا التي عبرت عنها نصوص أصحابها - وغيرها كثير - تجعلنا نشق في صدق سيطرة السبب الديني وهيمنته على الأسباب الأخرى، ومن هنا فقد تنوعت الدراسات الإسلامية عند المستشرقين وتعددت اهتماماتهم بالإسلام وحضارته، فمن دارس للعقيدة وأصولها، وللغة وأصوله وللتاريخ وحضارته، وللقرآن وعلومه وللحديث ورجاله، واللغة وآدابها، والرسول وغزواته وعلاقته بأهل الكتاب في المدينة واتبعوا في ذلك منهجاً نفسياً ركزوا خلاله على سر قوة المسلم ونقاط الضعف في العالم الإسلامي، ليسلبوا المسلم سر قوته ليصبح بعد ذلك لقمة سهلة التناول في أيديهم، يشكلون عقيدته حسب أهوائهم الصليبية، وحسب مكرهم السياسي والمذهبي، ولقد أفصح بعضهم عن هذا الهدف في بعض المؤتمرات بقوله: ".. لانريد أن نرسل إلى الشرق جنوداً مسلحين وإنما نريد لهم رسلاً مبشرين بالنصرانية".

وهذه الأهداف التبشيرية كانت واضحة تماماً فى كتابات المستشرقين قديماً وحديثاً مما مهد الطريق لحمالات التبشير فى العصر الحديث، حيث التقت أهداف الاستشراق والتبشير فى العمل على بذر الشكوك حول عقيدة المسلم ورسوله، ليخرجوا المسلم عن دينه إن استطاعوا، فإذا عجزوا عن تحقيق هذا الهدف فلا أقل من أن يتركوه بلا دين ولا عقيدة كما صرح بذلك "زويمر" وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: الآية ١٢٠).

٢- التمهيد للاستعمار :

لم يكن استيلاء صلاح الدين الأيوبي على بيت المقدس بالأمر الذى ينسأه الغرب، بل إن الأمل فى السيطرة عليه وتخليصه من أيدي المسلمين، ظل حلاماً وأملاً بالنسبة للصليبيين، ولذلك فإن الحملات الصليبية تكررت كثيراً على بيت المقدس لتحقيق هذا الهدف، وكان من الوسائل التى سلكها الغرب لتحقيق هدفهم محاولة دراسة ما يتعلق بشؤون البلاد وأحوال الناس فيها، وهذا الدور الذى قام به المستشرقون قد مهد السبيل للاستعمار لكى يحتل بلاد المسلمين بأيسر السبل وأقصرها معاً، فلم يكد ينتهى القرن التاسع عشر إلا وقد احتل الغرب معظم البلاد الإسلامية والعربية بصفة خاصة، فوضعت فرنسا يدها على سوريا ولبنان ومعظم دول شمال أفريقيا الإسلامية، ووضعت انجلترا يدها على مصر والسودان والعراق والأردن

وفلسطين وكثير من إمارات الخليج العربي واليمن، وبدأ الاستعمار يتعامل بأسلوب جديد مع شعوب هذه المناطق، حيث عمل على إضعاف روح المقاومة في نفوس المسلمين ليجعل منهم شعوباً قابلة للاستعمار فكراً وثقافة وحضارة وعقيدة، وهذا أخطر ما أصيب به العالم به العالم الإسلامي، قابليته للاستعمار بأشكاله وأساليبه الحديثة والمعاصرة، وكان من أهم وسائل الاستعمار في ذلك ما يلي :

أ- التشكيبك في ماضى هذه الأمة، فى تراثها وحضارتها، حتى إذا فقد المسلم ثقته فى نفسه أخذ يبحث له عن هوية وانتماء يعيد به ثقته فى نفسه ويجد فيه الأمان المفقود، فيرتدى فى أحضان الغرب تقليداً واتباعاً، وظهرت مصطلحات : التتوير، التتدمية، كمبررات لتقليد الغرب والارتقاء فى أحضانه.

ب- وضع مفاهيم جديدة وطرحها على الرأى العام خلال أجهزة الإعلام التى نجح الاستعمار فى استقطاب كثير من العاملين بها ليقوموا نيابة عنهم بهذه المهمة، بقصد إضعاف روح الانتماء الإسلامى والعربى، فطرحوا الفكر القومى بدلاً من الانتماء الإسلامى، وعملوا على إحياء الفرعونية فى مصر، والفينيقية والآشورية فى بلاد العراق والشام، والكردية والفارسية والتركية كل فى موطنه، بعد أن كانت هذه الأقطار المترامية يجمعها رباط واحد هو الإسلام، وخلافة واحدة هى الخلافة العثمانية، ولقد روج المستشرقون ومن سار فى ركبهم لهذه الروح الجاهلية التى كان القضاء عليها هدفاً من أهداف الإسلام وانفراط عقد

الأمة بالقضاء على الخلافة العثمانية التي كانت رمزاً حياً لهذه الوحدة الإسلامية. واحتل الحديث عن القوميات مكان الصدارة بدلاً من الحديث عن الانتماء الإسلامي والإخاء الديني، وأصبحت الفرصة مواتية للاستعمار ليملاً الفراغ في هذه البلاد بعد سقوط الخلافة العثمانية، وأخذ يحتل البلد تلو الآخر حتى تمت له السيطرة على الأقطار الإسلامية شرقاً وغرباً ووضع يده على ثروات شعوبه، وأحكم القبضة على العالم الإسلامي، وكان له ما أراد بعد أن مهد الاستشراق له بخلقه روح القابلية للاستعمار وإضعافه روح الانتماء الديني بين المسلمين.

٣- ثروات الشرق :

كانت -وما زالت- ثروات الشرق وخيراته إحدى الأهداف التي سعى الغرب للسيطرة عليها ووضعها تحت يده، وحرمان شعوب المنطقة منها، ولذلك فقد أنشئت الأسواق التجارية والمؤسسات المالية، وكان الحصول على هذه الثروات بأبخس الأثمان دافعاً قوياً لحركة الاستشراق ومن هنا أرسلت المؤسسات المالية في الغرب من يتولى إدارة شؤونها في الشرق فعينت المستشارين والمترجمين من المستشرقين، كما أخذ بعض المستشرقين المهتمين بالتراث العربي يعمل على تحقيقه ونشره والاستفادة منه، كما أنشأوا بعض المؤسسات المالية في دول الخليج واليمن، وكان بعض العاملين بها من المستشرقين الذين اهتموا بجمع المخطوطات العربية من المكتبات الخاصة من البلاد الخليجية ونقلوها إلى أوروبا، والذي يقرأ فهارس

المخطوطات بالمتحف البريطاني يتبين له أن كثيراً من تراثنا الإسلامي تحت أيديهم وفي حوزتهم.

٤- الاحتواء السياسي :

بعد حركة التحرير التي سادت شعوب المنطقة العربية حرص الاستعمار على أن يكون له بين هذه الشعوب من يتولى تنفيذ مخططه والقيام على شؤون مصالحه، فعين في سفارته وقنصلياته مستشارين لهم من ذوة الخبرة والمعرفة بشؤون الشرق وعلومه، وكان المستشرقون من أهم العناصر التي قامت بهذه المهمة، وكان نشاطهم السياسي ملحوظاً في جميع البلاد التي عملوا بها، وكان من أهم أعمالهم أن اتصلوا بكثير من المشتغلين بالثقافة والتعليم والإعلام في هذه المنطقة ليشكلوا منهم ما يمكن أن نسميه بالطابور الخامس ليتولى نيابة عنهم نشر الأفكار التي يرغبون في إشاعتها بين الشعوب العربية كالقوميات، وإحلال العامية بدلا من الفصحى، ومثالية النموذج الأوربي ووجوب الأخذ به.. الخ، وكثيرا ما كانت تقع الاضطرابات السياسية والانقلابات العسكرية، وكثيراً ما كانت تتغير المناهج الدراسية والبرامج الثقافية في كثير من البلاد استجابة لمصالح الغرب وتلبية لرغبة هؤلاء العملاء في البلاد الإسلامية، خاصة إذا عرفنا أن هذه الشخصيات كانت تتولى مناصب قيادية في أجهزة الحكم في بلادهم وبالذات في المجالات الثقافية والإعلامية والتربوية، وهذا لم تسلم منه بلد إسلامي تقريباً ولا يغيب عن الذهن ما فعله كرومر ودانلوب في المنطقة العربية في مطلع هذا القرن.

٥- طلب العلم والمعرفة :

وقد نجد عدداً قليلاً من المستشرقين طلبوا علوم الشرق والتعرف على حضارته طلباً للمعرفة وحباً فيها، وهذا عدد قليل إذا قيس بأعداد المستشرقين الآخرين، وهذا النوع من المستشرقين يتميز بالروح العلمية النزيهة، والدقة في الأحكام العلمية والإنصاف فيها، ولا نعدم أن نجد بينهم من شهد للحضارة العربية بدورها الرائد في الحضارة الأوروبية المعاصرة وخاصة في العلوم الرياضية والتجريبية، وكثير منهم كتب مؤلفاته وبحوثه حول شخصيات إسلامية كانت رائدة في مجالات العلم المتعددة، ونجد بين هؤلاء من وصل به بحثه النزيه وروحه العلمية إلى اكتشاف الحقيقة فأمن بها وأعلنها، وقد يصل به الأمر في نهاية المطاف إلى أن يعلن إسلامه، ويعلم المتخصصون في هذا اللون من الدراسات أن هناك عدداً غير قليل من المستشرقين يتمتعون بهذه الروح العلمية النزيهة، وقد تحولوا بعد إسلامهم إلى جنود مدافعين عن الإسلام وقضاياها، وعن العالم الإسلامي ومشكلاته، غير أن هناك أموراً يشترك فيها جميع المستشرقين بما فيهم هذا النمط الأخير، فهم جميعاً قد يقعون في أخطاء علمية بسبب جهلهم بأساليب اللغة العربية وطرائق التعبير فيها، ويرتبون على فهمهم الخاطئ نتائج وأحكاماً خاطئة تبتعد بهم كثيراً عن منطق الصواب والإنصاف، وقد يكون الفارق بين هذا النمط الأخير وغيرهم هو توفر حسن النية عند النمط الأخير الذي يتميز بالإنصاف والنزاهة وتوفر سوء القصد وعدم النزاهة عند غيرهم.

موقف المستشرقين من الفكر الإسلامي

تنوعت اهتمامات المستشرقين بالإسلام وتعددت اتجاهاتهم، بحيث شملت كل فروع الثقافة الإسلامية تقريباً، وأسسوا مدارس وأقساماً في الجامعات الأوروبية تخصصت في هذه الدراسات الشرقية، واستقدموا لها بعض أبناء العالم الإسلامي ليتعلموا بها عن طريق المنح الدراسية وعن طريق التبادل الثقافي بين الجامعات، وحصل كثير من أبناء العالم الإسلامي على درجاتهم العلمية من هذه الجامعات الأوروبية، ومن جهة أخرى عملت بعض الدول الأوروبية على إنشاء جامعات ومدارس في كثير من البلاد الإسلامية تعمل تحت إشرافها العلمي وخططها الدراسية، ولا تكاد تخلوا بلد إسلامي من هذا النوع من المؤسسات التعليمية التي تخضع في تمويلها ومناهجها العلمية لدول أوربا، وفي معظم الأحوال فإن أبناء هذه المدارس، وخريجها يكون ولاؤهم الثقافي والحضاري والسياسي لهذه الدول التي تلقوا تعليمهم فيها أو تحت إشرافها.

ومن الجهود التي قام بها المستشرقون، انهم قاموا بوضع الموسوعات العلمية الإسلامية مثل دوائر المعارف المختلفة مثل دائرة المعارف الإسلامية، والقاموس الإسلامي، والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث، ورغم الأخطاء الكثيرة التي وقعت في دائرة المعارف الإسلامي أو في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث، إلا أن هذه الأعمال قد أدت خدمات جليلة للباحثين ووفرت كثيراً من الجهد والوقت

للدارسين، والأخطاء التي وقعت في هذه الدوائر المعرفية قد انتقلت منها إلى كثير من أعمال الدارسين وقبلوها على أنها قضايا مسلمة وشاعت هذه الأخطاء بين المهتمين بالدراسات الإسلامية من العرب وغيرهم.

كذلك امتدت نشاطات المستشرقين في مجال الدراسات العربية والإسلامية فعدوا المؤتمرات والندوات وألقوا المحاضرات في الجامعات العربية والإسلامية، فضلاً عن تأليف الكتب والاشتغال بتحقيق التراث العربي والإسلامي في مجالات كثيرة، كما تسللوا إلى الجامعات اللغوية في كثير من البلاد، فأصبح بعضهم أعضاء عاملين في مجمع اللغة العربية بمصر، وفي سوريا، وبغداد، والمغرب وتونس ولا تكاد تخلو جامعة أوروبية الآن من قسم متخصص في الدراسات الشرقية والإسلامية، وكانت أكثر دول أوروبا اهتماماً بهذه القضية هي فرنسا، فأنشأت بها أقدم مدرسة للدراسات العربية منذ القرن الثاني عشر في "دايمس" بأمر البابا سلفستر، ثم مدرسة شارتر سنة ١١١٧م، وأنشأ البابا هونوريوس معهداً للغات الشرقية سنة ١٢٨٥م، كما أنشئ أخيراً كرسي للغات الشرقية والدراسات الإسلامية بباريس والسوربون، فضلاً عن المدارس الكثيرة التي انتشرت في أنحاء كثيرة من فرنسا لهذا الغرض، ثم أنشأت فرنسا معاهد كثيرة في البلاد الإسلامية التي احتلتها، فأنشأت المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بمصر في المنيرة سنة ١٨٨٠م، وأنشأت كلية بوردو في تونس سنة

١٨٤١م، ثم تحولت إلى جامعة للآداب العربية، وانشأت مدرسة الآداب العالية بالجزائر سنة ١٨٨١م، ثم تحولت إلى جامعة سنة ١٩٠٩م، وكذلك أنشأت في المغرب معهد للدراسات المغربية بالرباط سنة ١٩٣١م ولها في دمشق المعهد الفرنسي سنة ١٩٢٢م، وكذلك المعهد الفرنسي بطهران الذي أنشئ سنة ١٩٤٨م.

ولقد أخذت معظم دول أوربا تحذو حذو فرنسا في الاهتمام بالدراسات الاستشرافية فأنشأت أقساماً ومعاهد ومدارس مختلفة للدراسات الشرقية كما هو الحال في جامعة إيطاليا، وانجلترا، وأسبانيا والبرتغال، والنمسا، وهولندا، وألمانيا، والدنمارك، والسويد، والمجر، وروسيا وأمريكا.. الخ وبعض هذه الدول قد أسست في كثير من البلدان التي تقع تحت نفوذها معاهد أو كليات تابعة لهم، كما فعلت أمريكا في بيروت ومصر وتركيا غيرها، حيث أنشأت بكل منها جامعة مستقلة تسمى الجامعة الأمريكية يتسرب من خلال نشاطها الثقافي مبادئها وأهدافها إلى الجامعات والمؤسسات التربوية في هذه الشعوب.

ولقد اختلفت مواقف المستشرقين من الفكر الإسلامي وقضاياها تبعاً لاختلاف أديانهم أو مذاهبهم الفكرية والسياسية، لأننا نجد بين صفوف المستشرقين اليهودي الحاقدي على الإسلام وأهله، والمسيحي الراهب المبشر بدينه، والشيعوي الملحد الذي لا دين له، ولا بد أن تختلف مواقف هؤلاء جميعاً تبعاً لانتمائهم الفكري والعقائدي، ولكن

على سبيل العموم كان أسوأ هؤلاء جميعاً هم المستشرقون اليهود،
فمنهم من يتهم الإسلام بأنه دين فرضه محمد وأتباعه بقوة السيف
والحروب.

وفيه من ينكر نبوة محمد أصلاً ويرى أن ما جاء به من
تعاليم قرآنية أخذها عن أحبار اليهود وكهنة النصارى.

ومن المستشرقين من يتهم إله المسلمين بأنه متعال جبار بينما
إله النصارى عطوف ودود متواضع ظهر للناس فى صورة واحد
منهم وهو عيسى ابن مريم، ولا يكاد يخلو كتاب استشراقى يتصل
بالإسلام ونبويه إلا وهو يقطر سماً وحقداً على الإسلام والمسلمين،
 ويفصح بعض المستشرقين عن هذا الحقد المعن فى تعليق صريح له،
على الحملات الصليبية فيقول : وهكذا تفهقت قوة الهلال أمام راية
الصليب، وانتصر الانجيل على القرآن وعلى ما تضمنه من قوانين
الأخلاق الساذجة.

وقد يطول بنا المقام لو أردنا التفضيل فى موقف المستشرقين
من الفكر الإسلامى وعلمائه، ولكننا سوف نقصر دراستنا هنا على
نقاط محددة أراها أكثر مناسبة للمقام حسب المساحة المحددة لنا فى
هذا الكتاب.

١- موقفهم من النبى والقرآن الكريم :

يرتبط موقف المستشرقين من القرآن الكريم بموقفهم من نبوة
محمد صلى الله عليه وسلم، لأنهم يقفون من النبى موقف الإنكار

المطلق، وقد ينكر بعضهم أصل النبوة أساساً ولا يعترف بها إطلاقاً، لأى من أنبياء الله ورسوله، وهذا الإنكار يترتب عليه القول بأن محمداً ليس نبياً وبالتالي فإن القرآن حسب زعمهم لا يكون وحياً من السماء، وإنما هو من عند محمد ومن وضعه هو، وليس كتاباً إليها ولا وحياً سماوياً.

ومعلوم أن الإيمان بالنبى والنبوة أصل من أصول الاعتقاد التى لا تقبل الشك يؤمن بها كل مسلم إيماناً جازماً كإيمانه بالله وهى المفتاح الحقيقى لتقبل كل ما جاء به الوحي والإيمان به.

والنبوة فى جوهرها إنباء الله عبداً من عباده بشرع ما، فإن أمره بتبليغ هذا الشرع إلى الناس كان رسولاً نبياً، وإن لم يأمره بالتبليغ كان نبياً فقط، والنبوة فى جوهرها اصطفاء ووهب وعطاء من الله، وليست كسباً ولا اجتهاداً كما يرى بعض الفلاسفة. وما بلغته الرسل إلى الناس من شرائع وعبادات ليس من عند أنفسها، وإنما هى وحى من الله نزل به الروح الأمين على قلب محمد وغيره من الرسل ليكونوا من المنذرين به فنزل القرآن بالعربية، والإنجيل بالسريانية، والتوراه بالعبرية، تحقيقاً لمعنى قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (ابراهيم: ٤) وهذا الوحي ليس فيضاً من العقل الفعال كما تدعى الفلاسفة، وليس إلهاماً ولا إبداعاً لعبقرية محمد كما يقول بعض المستشرقين، وإنما هو وحى من الله على قلب الرسل بواسطة ملك الوحي جبريل - عليه السلام - فهو من عند الله بلفظه ومعناه.

والمستشرقون يرون القضية عكس ذلك تماماً، فهم أولاً لا يؤمنون بنبوة محمد ولا يعترفون بها.

١- فهو عند البعض أحد عباقرة العالم العشرة.

٢- وعند البعض الآخر أحد الأبطال العظماء.

٣- وعند آخرين ناقل ذكى من كتب الأولين.

٤- أو متعلم من رهبان النصارى قد أجاد فى تعلمه عنهم.

٥- أو أحد المشعوذين وطلاب الرياسة والزعامة.. هكذا يقولون فى حق نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، وإذا أرادوا شيئاً من الإنصاف قالوا إنه جاء ليدعو إلى الإشتراكية وليس إلى عقيدة دينية جديدة.

أ- يقول هويرت جريمى "مستشرق ألمانى" فى كتابه : "محمد"^(١) لم يكن محمد فى بادئ الأمر يبشر بدين جديد بل إنما كان يدعو إلى الإشتراكية، ثم يقول : فالإسلام فى صورته الأولى لم يكن يحتاج إلى أن نرجعه إلى ديانة سابقة تفسر لنا تعاليمه.. بل هو محاولة للإصلاح الاجتماعى تهدف إلى تغيير الأوضاع الفاسدة، وعلى الأخص إزالة الفوارق الصارخة بين الأغنياء والفقراء، لذلك نراه يفرض ضريبة معينة لمساعدة المحتاجين، وهو يستخدم فكرة الحساب فى اليوم الآخر كوسيلة للضغط المعنوى وتأييد دعوته.

(١) ص ٥٦٥، ٥٩٢، ١٤١، ٣.

ب- بينما يرى المستشرق الإنجليزي "جب" في كتابه : "المذهب المحمدي" أن محمداً ككل شخصية مبدعة قد تأثرت بضرورات الظروف الخارجية المحيطة به من جهة ثم هو من جهة أخرى قد شق طريقاً جديداً بين الأفكار والعقائد السائدة في زمانه، والدائرة في المكان الذي نشأ فيه.. ومحمد نجح لأنه كان واحداً من المكيين، ومعارضة المكيين له لم تكن من أجل تمسكهم بالقديم، أو بسبب عدم رغبتهم في الإيمان وإنما كانت لسبب سياسى أو اقتصادى فالمستشرق "جب" يفسر موقفه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فيرى أن الظروف المكية هي التي جعلت من محمد زعيماً سياسياً وأعطته الفرصة لكي يظهر في وسط قومه المكيين بهذه الصورة وإن يلتف حوله فقراء مكة طلباً للإنصاف من الأغنياء.

ج- وهناك نمط آخر من المتشركين يرون أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد حلت به حالة نفسية أدت به إلى نوع من التأمل الذاتى فى السماء وما فيها من نجوم، وساعد على تألق هذا النوع من التأمل جو مكة وما تتركه من رهبة فى القلوب، خاصة إذا خلى الإنسان وعالمه الطبيعى الموحش من الجبال وما حولها، وما تثيره فى النفوس من حالات الهلع والتأمل الذاتى.

وعلى مثل هذا النحو من الفهم، عن الرسول صلى الله عليه وسلم. كان موقف المستشرقين من النبى فهم ينكرون رسالته جملة

وتفصيلاً، وهذا بالطبع سوف ينسحب على موقفهم من القرآن الكريم
ومن مصدره الإلهي.

يقول غوستاف لوبون : يجب اعتبار محمد من فصيلة
المتهوسين من الناحية العلمية كأكبر مؤسسى الديانات ولا تعجب
لذلك، فلم يكن ذوو المزاج البارد من المفكرين هم الذين ينشؤون
الديانات، ويقودون الناس، وإنما أولو الهوس هم الذين مثلوا هذا الدور
وهم الذين أقاموا الأديان وهدموا الدول.. وقادوا البشرية.

ولقد وضع هذا المستشرق كتابه عن "حضارة العرب" وصرح
فيه بآراء وأفكار تدل على جهله بالوحي والنبوة وطبيعة الحضارة
الإسلامية، وبطبيعة الحياة الخاصة للرسول فهو يتهمه بالشهوانية فى
حياته الزوجية، ويرتب على هذا الإتهام مجموعة من الأحكام التى
تدل على جهله بخصوصيات الرسول ويجعل القرآن دليلاً على
عبقرية الرسول وإبداعه أو يضعه فى مكانه أدنى من كتب الهندوس
الدينية، ويرى أنه كتاب مؤقت بعصره لا يحقق حاجات الناس فى
عصور لاحقة بل يجعله السبب فى تخلف المسلمين.

د- أما جولد تسيهر فقد وضع كتابه عن "مذاهب التفسير الإسلامى"
ونسب فيه المعرفة التى تلقاها محمد عن مصدرين إذ يقول:
فتبشير النبى العربى ليس إلا مزيجاً من معارف وآراء دينية
عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التى تأثر بها
تأثراً عميقاً والتى رآها جديرة بأن توظف فى بنى وطنه عاطفة

دينية صادقة، وهذه التعاليم التي أخذها عن تلك العناصر الأجبينة، كانت في وجدانه ضرورية لإقرار لون من الحياة في اتجاه يريده الله؛ ولقد تأثر بهذه الأفكار تأثراً عميقاً، وأدركها بإحياء التأثيرات الخارجية، فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحيأ إليها.

هـ- ويسير في نفس الاتجاه "بلاشير" في كتابه : "معضلة محمد" حيث يرى أن التشابه الواقع بين قصص القرآن وقصص التوراة والانجيل كان سبباً في القول بأن محمداً أخذ القرآن عن هذين المصدرين.

و- أما نيكلسون فقد ركز اهتمامه على دراسة التصوف الإسلامي ليثبت به أن محمداً صلى الله عليه وسلم، أخذ القرآن عن مصادر متعددة، لكن أهمها هي المسيحية، ويتهم القرآن بالتناقض والتضارب الذي لم يستطع أهل مكة اكتشاف ما فيه من تناقض لسذاجتهم وعدم قدرتهم، يقول نيكلسون: والقارئون للقرآن من الأوربيين لا تعوزهم الدهشة من اضطراب مؤلفه وهو محمد، وعدم تماسكه في معالجة كبار المعضلات، وهو نفسه - محمد - لم يكن على علم بهذه المعضلات، كما لم تكن حجر عثرة في سبيل صحابته، الذين تقبل إيمانهم الساذج القرآن على أنه كلام الله، كما يتهم الرسول في هذا الكتاب - الصوفية في الإسلام - بأنه حرف النصرانية وأساء فهمها.

هذه هي نظرة المستشرقين للقرآن من ناحية مصدره، فالقرآن عندهم ليس إلهياً ولا ربانياً، وإنما هو بشرى من صنع محمد، وإن ما جاء فيه من قصص توافق ما جاء في التوراه والإنجيل فإنه قد أخذها عن هذين المصدرين بتحريف وإساءة فهم.

ومعلوم لدى كل مسلم أن الإيمان بالقرآن وأنه كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود أصل من أصول الاعتقاد، ولا ريب في ذلك لدى كل مسلم، وأنه بلفظه ومعناه من الله، نزل به الروح الأمين على قلب النبي حسب الحوادث وما تحتاجه من حلول لما أشكل فيها.

مناقشة هذه الآراء :

أولاً : ليست الدعاوى التي يفتريها المستشرقون في حق نبي الإسلام وفي حق القرآن الكريم بجديدة على المتقف المسلم، ولا أريد في هذه الدراسة الموجزة أن أتعرض بالرد التفصيلي على ما أثاره المستشرقون من شبهات وشكوك حول الإسلام، كما أن المعاندة أو المجادلة بقصد الغلبة ليست هدفاً مقصوداً لنا في هذه الدراسة، لأن ديننا ونبينا الذي يفترون عليه كذباً وبهتاناً يهون عن ذلك، ويأمرون أن نقول للناس حسنى، وألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن، وأن نؤمن بأن الأنبياء جميعاً دينهم واحد وأمهاتهم شتى كما أخبر بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن هنا فإننا ننبه إلى عقيدة كل مسلم في نبي الله عيسى وموسى وجميع الأنبياء، فينبغي ألا نقول في حق نبي الله عيسى إلا كما قال القرآن الكريم.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران : ٥٩)

ولا نتكلم فى حقه عليه السلام بأفضل مما تكلم هو فى حق نفسه حيث قال :

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾
(سورة مريم : ٣٠-٣٣)

وأنه ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى﴾ (النساء : ١٧١)

وأنه ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ (النساء: ١٧٢)

هذه هى عقيدة المسلمين فى نبى الله عيسى، وكذلك يؤمن المسلمون بأن ما نزل على عيسى من ربه هو الحق. ولا نقول فى حقه الا كما قال القرآن على لسان عيسى حين قال : إبنى عبدالله أتانى الكتاب ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (آل عمران : ٤٨) وأن هذا الكتاب الذى أنزل على عيسى قد صدقه القرآن وبين أنه وقع فيه التحريف على أيدى النصارى، وأن الكتب التى بأيدى النصارى اليوم وما يتعبدون به لا تمت بسبب إلى الكتاب الذى نزل على عيسى عليه السلام، وسوف نبين ذلك بالبراهين القاطعة فيما بعد.

وكذلك يعتقد جميع المسلمين بعفاف مريم وطهارتها. وأنها صديقة أصطفاها الله تعالى كما قال ربنا ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران : ٤٢)

وكما قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانًا مِمَّنْ قَبْلُهَا مِنَ الدِّينِ﴾ (التحریم : ١٢)

هذا هو اعتقاد كل مسلم في حق عيسى في حق وأمه البتول الظاهرة. وفي حق الكتاب الذي أنزل عليه. ولا يصح إيمان المسلم إلا بذلك. وأن الكتاب الذي أنزل على عيسى جاء مبشراً برسول يأتي من بعده اسمه أحمد. وأن هذا النبي قد ذكرته التوراه بأسمه صراحة وأن الإنجيل قد ذكره بوصفه في أكثر من موضع.

هذه أصول اعتقادية يؤمن بها كل مسلم ولا يفرق في ذلك بين أحد من أنبياء الله ورسوله. ولا يقبل من المسلم إيمانه إلا بذلك.

ونحن كمسلمين يفرض علينا ديننا أن نعلن براءتنا مما افتراه اليهود في حق عيسى عليه السلام، ونعلن براءتنا مما افترته اليهود في حق أمة مريم وأن اتهام اليهود لمريم بهتان عظيم نبشراً إلى الله منه لأن الله قد طهرها، وأصطفاها على نساء العالمين، والإيمان بطهارتها وعفتها عقيدة اسلامية.

وبعد هذه الأصول الاعتقادية التي كان لابد من بيانها. أرى ضرورياً أن نضع أمام طلبة العلم الأصول الوثنية التي انحرفت إليها

أناجيل النصارى لنبيين أن ما نزل على عيسى بن مريم شيء، وأن ما يدين به النصارى اليوم شيء آخر، فإن ما نزل على عيسى عليه السلام هو الحق من ربه، وما يتعبد به النصارى اليوم لم ينزل به وحى ولم ينطق به نبي وإنما هو من تحريف علمائهم وأن الطقوس والشعائر التي يتعبدون بها الآن إنما هي من نراث الوثنيات السابقة على النصرانية المعاصرة لها. وقد نبه إلى ذلك مفكرون كبار أمثال الإمام ابن تيمية في كتابه الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح وتلميذه ابن القيم في كتابه هداية الحيارى في الرد على النصارى.

كما ألف بعض المهتدين من النصارى مؤلفات مستقلة نذكر منهم في هذا المقام محمد بن طاهر البيروتى في كتابه العقائد الوثنية في الديانة النصرانية "الذى طبع أكثر من مرة"⁽¹⁾.

وجاء الفصل السابع من هذا الكتاب كاملا في المقارنة بين النصوص التي تصور عقيدة الهند في بوذا وكريشنا وعقيدة النصارى في عيسى عليه السلام وأوضح أن ما يقول به النصارى في حق عيسى عليه السلام من أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. وأن عقيدة التعميد والعشاء الأخير وغيرها من عقائد النصارى مأخوذة من العقائد الوثنية السابقة على عقيدة النصارى، ولا بد أن نشيرها هنا إلى جهود علمائنا السابقين أمثال ابن حزم في كتابه العظيم "الفصل في الملل والنحل" وابن تيمية في الجواب الصحيح. وما كتبه القرافى في

(1) طبعه أخيرا زميلنا الفاضل أ. د/ محمد الشرقاوى طبعة محققة ومنضبطة.

كتابه "الاجوبة الفاخرة" وابن القيم فى هداية النصارى. وغيرهم. من العلماء الذين أسسوا فى ذلك منهاجا مستقبلا فى البحث هو منهج النقد الداخلى للنص فدرسوا نصوص الأناجيل دراسة نقدية وبينوا ما فى هذه الأناجيل من تناقض يفضح تزيفها وتحريفها مما ينأى بها أن تكون هى مما نزل على عيسى عليه السلام وإنما هى بقايا من وثنيات الأديان السابقة.

وأن الصليبية المعاصرة لاتمت إلى روح الديانة النصرانية بسبب لا من قريب ولا من بعيد، فالصليبية شىء وروح النصرانية التى بشر بها عيسى بن مريم شىء آخر، فالصليبية حقد وكرهية والنصرانية حب ورحمة، والصليبية استكبار وفساد وسفك للدماء. والنصرانية التى جاء بها عيسى عليه السلام. ود وتراحم وتواضع. كما قال تعالى : ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾
(المائدة : ٨٢)

وسوف أضع بين يدى القارئ أعتقاد الوثنيين فى بوذا وفى كريشنا وأعتقاد النصارى فى عيسى عليه السلام ليعرف القارئ مدى التحريف الذى أصاب النصرانية وأن عقيدتهم فى أصولها وفروعها مأخوذة من الوثنيات السابقة وأنها لا تمت بسبب إلى ما نزل على عيسى عليه السلام.

أولاً : عقيدة الهنود فى كريشنا :

كريشنا هو المخلص والفادى والراعى وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس وهو الأب والابن والروح القدس. كان كريشنا من سلالة ملوكانية ولكنه ولد فى غار يحال الذل والفقر.

عرف الناس ولادة كريشنا من نجمة الذى ظهر فى السماء. لما ولد كريشنا سبحت الأرض وأنارها القمر بنوره وترنمت الأرواح وهامت السماء فرحا وطربا. ورتل السحاب بأنغام مطربة. ومات كريشنا ثم قام من بين الأموات كريشنا الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شىء كريشنا هو براهيم العظيم القدوس بالناسوت سر من أسرارهِ العجيبية الإلهية.

ثانياً : عقيدة البوذية :

كان يجد بوذا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا. ولد بوذا ابن العذراء مايا التى حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد (٢٥ كانون الأول) وقد دل على ولادة بوذا نجم ظهر فى أفق السماء ويدعونه نجم المسيح.

لما ولد بوذا فرحت جنود السماء ورتلت الملائكة أناشيد المجد. بوذا الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء.

وقد عمد بوذا المخلص وحين عمادته بالماء كانت روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط بل روح القدس الذى فى سارا تجسد كوتاما لما حل على العذراء مايا قال بوذا إنه لم يأت لينقض الناموس كلا بل أتى ليكمله.

عقيدة النصارى فى عيسى :

يسوع هو المخلص والفادى والمفدى والراعى وابن الله والأقنوم الثانى من الثالوث المقدس وهو الأب والابن والروح القدس كان يسوع من سلالة ملوكانية ولكنه ولد فى حالة الذل والفقر بغار (انجيل مريم).

كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم.

ولد يسوع ابن العذراء مريم التى حل فيها الروح القدس يوم الميلاد.

وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر فى المشرق وبواسطة ظهور نجمه عرف الناس قبل ولادته.

لما ولد يسوع المسيح رتل الملائكة فرحا وسرورا وظهر من السحاب انغام مطربه لله المجد فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسره.



ومات يسوع ثم قام من بين الأموات يسوع الألف والياء
والوسط وهو آخر كل شيء.

يسوع هو مهده العظيم القدوس وظهوره فى الناسوت سر من
أسراره العظيمة الإلهية ويوحنا عمّد يسوع بنهر الأردن وكانت روح
الله حاضرة، وهو لم يكن الإله العيظم بل والروح القدس الذى تم
تجسده عندما حل على العذراء، مريم فهو الأب والابن والروح
القدس.

وقال يسوع .. لا تظن انى جئت لأنقض الناموس.. ما جئت
لأنقض بل لأكمل (١) .

وعلى القارئ أن يقارن بين هذه العقائد الثلاثة - عقيدة الهنود
فى بوذا وفى كريشنا وعقيدة النصارى فى عيسى عليه السلام -
ليدرك التحريف الكبير الذى أصاب المسيحية من الوثنيات السابقة.

ومن يقرأ نصوص المستشرقين وأقوالهم عن القرآن، ودعوى
أنه بشرى لمصدر، ويقارن بين هذه الاتهامات وما حكاها القرآن
الكريم عند مشركى مكة قديماً، وعن موقفهم من الرسول والقرآن لا
يجد شيئاً جديداً عند المستشرقين، فإن رأيهم ودعواهم فى القرآن قد
سبق إليها مشركو مكة وأهل الكتاب فى المدينة، ولقد بلغ حرص
النصارى على هذه الاتهامات وتكرارها من جيل إلى جيل أن بعضهم

(١) راجع هذه الأقتباسات كتاب العقائد الوثنية فى الديانة النصرانية تأليف محمد
بن طاهر البيرونى ص ١٨٥-٢٠٠ وبعدها.

قد أفردها بمؤلفات مستقلة، كما فعل يوحنا الدمشقي وبولص الأنطاكي في رسائله عن النصرانية والإسلام.

وقديما قال المشركون عن القرآن : ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ (المدثر : ٢٤، ٢٥)

وقالوا عنه : ﴿أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان : ٥)

وقال عن الرسول : ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرًا﴾ (النحل : ١٠٣)

وقالوا له : ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ﴾

(الحجر : ٦)

وقالوا له : لست مرسلأ .. وقالوا غير ذلك الكثير عن القرآن وعن الرسول مما حكاه القرآن عنهم، فلا غرابة - إذن - أن تتردد هذه الاتهامات على ألسنة أحفادهم في كل جيل من المستشرقين والمبشرين بالنصرانية ومن دار في فلکهم من أبناء ملتنا.

وكذلك الذين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم، بأنه عبقرى أو أحد العظماء العشرة في العالم، أو أنه طالب رياسة وزعامة، أو مصلح اجتماعى .. أو ... أو ، ولانجد لديهم جديداً عما حكاه القرآن عن أهل الكتاب بالمدينة أو مشركى مكة، ولا بتسع المقام لتفصيل القول في ذلك لكن نود الإشارة إلى أمور :

أولاً : لقد قال المشركون عنه : إنه معلم، وشاعر، وساحر، وأن القرآن أفك افتراه، ولعل مجيء القرآن مشتملاً على هذه الاتهامات - ذكراً لها - أكبر دليل على أن القرآن الكريم ليس من عند محمد ولا من بنات أفكاره.

فإن من له صلة بالقرآن وتلاوته يدرك تماماً سقوط هذه الدعاوى الظالمة ويعلم يقيناً أن القرآن كان أميناً في عرض هذه الإتهامات على السنة المشركين وأميناً في الاحتفاظ بها تتلى ضمن آياته، ويتعبد بها المسلم كما يتعبد بتلاوة غيرها من الآيات. ليكون القرآن نفسه حاملاً معه أدلة نفي هذه الإتهامات الكاذبة، وحاملاً معه دلائل مصدره الإلهي، فإن من له حظ من العقل والحكمة يعلم تماماً أن هذا القرا لو كان من عند محمد لجاأ خالياً تماماً من ذكر هذه الإتهامات الموجهة إليه، ولكان أولى له أن يأتي بشهادات تأييده وصدقه، بدلاً من ذكر الإتهامات التي وجهها المشركون إليه في أول عهدهم بالدعوة، إن تسجيل القرآن الكريم لهذه الاتهامات يدل على أمرين مهمين جداً في شأن الدعوة الإسلامية.

الأمر الأول : دلالته على صدق النبي وأمانته في النقل عن ربه، لأنه ليس من صالح أصحاب الرسالات أن ينقلوا إلينا هذه الإتهامات التي تحمل معنى التكذيب والإفراء، بل كان الأولى بهم لو لم يكونوا رسلاً صادقين أن يخفوا ذلك تماماً عن الاتباع، ولجاأوا بدلاً منها بشهادات تأييد وتصديق، كما يحدث في عهدنا هذا في كثير

من المناسبات، ولكنهم الرسل، وحاشا لواحد منهم أن يكون غير ذلك فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

أما الأمر الثانى : فهو دلالة هذا النص القرآنى على ألوهية مصدره ودلالته على أنه من عند الله وليس من قول البشر، والذى له صلة بالقرآن يعلم تماماً أن ذلك هو حق اليقين.

ثانياً : إن القرآن يشتمل على كثير من مواقف اللوم والعتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك فى أمور كان يتصرف فيها الرسول من واقع بشريته الخالصة، فكان ينزل القرآن معاتباً للرسول على ما فعل، حدث ذلك فى موقفه صلى الله عليه وسلم مع ابن أم مكتوم، حين أنصرف عنه الرسول إلى غيره فنزل قوله تعالى : ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكَى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ .. إلخ الآيات

(عبس ١-٤)

وحدث ذلك فى شأن أسرى بدر، حين أوشك الرسول أن يأخذ الفدية من الأسرى ويطلق سراحهم، فنزل الوحي مخالفاً لرأى الرسول ومعاتباً له بقوله : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ كُنَّا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(الأنفال : ٦٧)

وجاء مثل ذلك فى سورة الكهف حين اهتم الرسول ببعض وجهاء مكة أملاً فى إسلامهم وأعرض عن بعض أتباعه فنزل قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ (الكهف : ٢٨)

وحدث نظير ذلك فى مواقف عديدة ذكرها القرآن الكريم حين قالت قريش للرسول أقبل على بعض أمرنا ونحن نقبل على بعض أمرك، فنزل قوله تعالى ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلاً وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ (سورة الإسراء : ٧٣ : ٧٤)

ونظائر ذلك فى القرآن كثير يتلوها المسلم ويتعبد بها كما يتعبد بتلاوة الأوامر والنواهي، فهل يكون ذلك اللوم وذلك العتاب من عند محمد؟.. أليس من الأولى لو كان القرآن من عند محمد كما زعموا أن يكون خالياً من مثل ذلك اللوم الموجه إلى شخصه، وهل يكون القرآن من عند محمد ويكون مشتتلاً على مثل قوله تعالى : ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ إن القرآن نفسه قد احتوى على ألوهية مصدره كجزء ذاتى فيه وليس خارجاً عنه من ذلك مثلاً:

١- ما أشرنا إليه آنفاً وهو إشارته لمواقف العتاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور التي كاد يتصرف فيها بمقتضى بشريته، والتي ذكرنا أمثلة منها.

٢- إشارته إلى مواقف المشركين وأهل الكتاب وإنكارهم لألوهية مصدره ودعواهم أنه من عند محمد تارة أو أنه قد أتخذه من أهل الكتاب أو.. أو.. الخ.

٣- إشارته إلى اتهام المشركين لمحمد بأنه (ساحر أو شاعر أو معلم أو مجنون) إذ كان من عند محمد لما جاء مشتتلاً على هذه الاتهامات، وكان أولى به أن يأتي بشهادات تؤيد صدقه.

وينبغي أن نعلم أن القرآن الكريم عندما ذكر هذه الإشارات لم يذكرها إلا مقرونة بدليل يبطلها وبيان فسادها، فأحياناً يذكر الفرية ثم يتبعها بقوله : إن يتبعون إلا الظن، لينفى أن يكون معهم دليل على كذبهم كما في قوله : قل هاتوا برهانكم. وقوله إن عنكم من سلطان بهذا.. إلخ، ليبين أن كلامهم متهافت في ميزان المنطق لافتقاده دليل صدقه. وأحياناً يذكر الفرية ثم يتبعها بالقضية الجازمة بأن القرآن من عند الله. كما في قوله تعالى ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٦) وأحياناً ينفي عنهم صفة العلم أصلاً بمستوياته المختلفة كما في قوله تعالى ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (النحل : ١٠١) ولعل القرآن كان يلفت نظر المسلمين إلى جنس هذه الافتراءات وأن ادعياءها لا يملكون دليلاً

على صحة دعواهم وإن هي إلا ظنون ووأوهام أنبثتها بذور الحقد والكراهية لهذا الدين ولنبيه.

ثالثاً : ومن معجزات القرآن الكبرى أنه صالح لكل زمان ومكان وأن أدلته وبراهينه التي تحدى بها كفار مكة وأهل الكتاب في المدينة هي بعينها مازالت مصدراً للتحدى لكبار المستشرقين ومن سار في فلكهم، ذلك أن أهل الكتاب بالمدينة وقبلهم مشركو مكة لما قالوا إن القرآن من عند محمد وأنه إفك افتراه، تحداهم القرآن على لسان الرسول بحجة سهلة وميسورة لكل عربي، فقال لهم : إذا كنتم عربياً ومحمد عربي مثلكم وقد أتى بهذا القرآن من عند نفسه، فأتوا بآية من مثله، أو بسورة، أو بعض سور مثله مفتریات، وهذه حجة في غاية الإقناع والإفحام في نفس الوقت أنها ملزمة للخصم فهو إما أن يأتي بمثل القرآن إن كان بشرياً تصديقاً لدعواه، أو يسلم بانه من عند الله فيؤمن به. فإذا أصر على موقفه بعد ذلك فإنه بذلك يكون خارجاً عن مجال الحوار العلمي إلى مجال العناد والاستكبار، وهذا هو شأن المشركين قديماً والمستشرقين حديثاً، كما قال القرآن حاكياً عنهم، ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾. (الأنعام : ٣٣)

ومن تمام نعم الله على عباده ومن كمال حجته على خلقه، أن آيات النبوة وبراهين الرسالة الخاتمة معلومة لكل الخلق، وفي اسطاعتهم العلم بها، وقد يكون عند بعضهم من دلائل نبوته ما لا يوجد

عند البعض الآخر، وقد يظهر لكل قوم من الآيات والدلائل النفسية والأفقية ما يتبين به أن القرآن حق، وإذا ظهرت هذه الدلائل ووضحت وأعرض الإنسان عنها أو أعرض عن النظر الحق الموجب للعلم بها، كان موقفه عناداً واستكباراً، وكان في شقاق مع الله ورسوله.

ثالثاً : والله تعالى قد شهد للقرآن بنفسه تارة وبملائكته تارة، وبآياته البينات تارة، وأخبر عن هذا القرآن بقوله : ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ (الاسراء : ٨٨)، وقد أخبر الرسول بذلك في أول أمر الدعوة في مكة، وأخبار الرسول عن هذا وبهذا النفي العام الشامل للإنس والجن فيه آيات لنبوته. لأن مثل هذا الخبر، لا يقدم عليه من يريد من الناس أن يصدقوه، إلا وهو واثق كل الثقة أن الأمر كذلك في نفسه، ولو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر، ويفسد عليه قصده، وهذا لا يقدم عليه حكيم ولا عاقل.

رابعاً : ولم يثبت أن واحداً من العرب عارض القرآن، والذي حاول ذلك منهم أتى بأشياء فضحت أمره بين قومه، ومعلوم أن توفر الدواعي المعارضة للقرآن كانت موجودة لدى المشركين، ولما عجزوا عن معارضته مع توفر الدواعي عندهم، ومع الحرص الشديد على محاربتة وإبطاله بكل وسيلة ممكنة، دل ذلك على

العجز المطلق، وهذا فى حد ذاته برهان تام على صدق القرآن، وصدق أنه آية على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه آية ظاهرة وباقية إلى يوم القيامة، وليس القصد هنا الحديث عن إعجاز القرآن، فإن ذلك له مجال آخر، ولكن الذى أود الإشارة إليه أن دلائل ألوهية المصدر القرآنى متنوعه ومتعددة وكلها من أوجه إعجاز القرآن وكل وجه منها دليل على صدق النبى، وفى نفس الوقت دليل على أن القرآن من عند الله، ولما قص القرآن علينا موقف مشركى مكة ودعواهم الكاذبة فى أن القرآن من عند محمد قال لهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ﴾ (سورة هود : ١٤ : ١٤) وقال سبحانه : ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء : ١٦٦) أى كفاك يا محمد أن الله وملائكته يشهدون بما أنزل إليك ثم أعاد التحدى فى المدينة مع أهل الكتاب بعد الهجرة، فقال فى سورة البقرة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، ثم قال ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٢٤ : ٢٣) فدللت الآية على أمرين الأول : قوله ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ يعنى إذا لم تفعلوا فقد علمتم أنه حق، وينبغى أن تعترفوا بذلك وتؤمنوا به.

الثانى : قوله تعالى ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ولن تفيد تأكيد النفي فى المستقبل فثبت، بالخبر أن البشر لن يأتوا بمثله فيما يستقبل من الزمن، فكان القرآن بذلك قد أخبر بعجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله ولو تعاون على ذلك أهل الأرض قاطبة.

وكان الكفار فى مكة من أحرص الناس على إبطاله ومعارضته مجتهدين فى ذلك بكل الوسائل، تارة يسألون أهل الكتاب عن أمور غيبية ليسألوا عنها محمداً ليظهروا بذلك عجزه، كما سألوهم عن قصة يوسف، وأهل الكهف، وذى القرنين، وحاولوا أن يخبروا الرسول فى ذلك.

وتارة يجتمعون المرة بعد المرة ليتفقوا على أمر يسألون عنه محمداً بقصد إعجازه، فكان ينزل القرآن بالإجابة الشافية لأمرائهم، فإذا كان هذا شأنهم معه، حرص تام على المعارضة المرة تلو المرة، ولو كانوا قادرين عليها لفعلوها، لأنه إذا وجدت الدواعى التامة وامتنعت الصوارف وكانت القدرة حاصلة، وجب وجود المطلوب، وهذا شأننا مع المستشرقين الآن، وهذا التحدى من أبلغ المواقف القرآنية التى يتحدى بها أهل الأرض قديماً وحديثاً، وكل من ادعى بشرية القرآن فعليه أن يأتى بمثله آيه، أو سورة، أو عشر سور، فإن لم يستطع أحد أن يفعل ذلك فعليه أن يؤمن به، ومعلوم لدى أهل العلم بالقرآن وعلومه أن أوجه الإعجاز القرآنى من جهة معانية، وإخباره



عن الغيوب الماضى منها والمستقبل أكثر من جهة إعجازه اللفظى، ولكن أردنا بذلك أن نضع بين يدي القارئ نماذج منها على وجه التمثيل فقط وليس على وجه الاستقصاء أو الحصر، لأنه من ذا الذى يستطيع حصر أوجه إعجاز القرآن ومن أراد تفصيل القول فى ذلك فليراجع كتب علوم القرآن، كالإتقان فى علوم القرآن للسيوطى وأدقائق التفسير لابن تيمية خاصة الجزء الأول منه (مقدمة فى إعجاز القرآن).

خامساً : ومن المفيد أن نشير هنا إلى أن الذين تأملوا القرآن بعين الإنصاف من المستشرقين لم يلبثوا أن أعلنوا إسلامهم واعتناقهم للإسلام ديناً وللقرآن دستوراً، وأعلنوا ندمهم الشديد على ماضى أيامهم التى قضوها على الكفر والعناد، يقول موريس بوكاى الطبيب الفرنسى الذى أسلم وألف كتابه "القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم" لقد أثارت دهشتى هذه الجوانب العلمية التى يختص بها القرآن، والتى كانت مطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة. ولقد درست هذه النصوص بروح متحررة تماماً من كل حكم سابق وبموضوعية تامة، بيد أنى لا أنكر تأثير التعاليم التى تلقيتها فى شبابى، حيث لم تكن الأغلبية تتحدث عن الإسلام، وإنما عن المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أن هذا الدين أسسه رجل، وبالتالي فهو ليس بدين

سماوى فلا قيمة له عند الله، وكان يمكن أن أظل محتفظاً بالكثير من هذه الأفكار الخاطئة عن الإسلام، وهى شديدة الانتشار، ولما تحدثت مع بعض المستثمرين من غير المتخصصين، عرفت أنى كنت جاهلاً قبل أن تعطى لى صورة صحيحة تختلف عن تلك التى تلقيتها فى الغرب عن الإسلام، وكان هدفى هو قراءة القرآن ودراسة نصه آية آية.. وأنتهيت إلى دقة الإشارات الخاصة بالظواهر الطبيعية ومطابقتها للمفاهيم التى نملكها اليوم، والتى لم يكن لمحمد ولا لأى إنسان فى عصر محمد أن يكون عنها أدنى فكرة.. وعلى حين نجد فى التوراة أخطاء علمية فادحة فإننا لا نجد فى القرآن أى خطأ.. وقد دفعنى ذلك إلى أن أتساءل لو كان مؤلف القرآن إنساناً بشراً فكيف استطاع فى القرن السابع المسيحى أن يكتب ما اتضح اليوم أنه يتفق مع العلم الحديث، فى مجال القضايا التى تخضع للملاحظة، مثل تطور الجنين يمكن مقابلة مختلف المراحل الموصوفة فى القرآن مع معطيات علم الأجنة "الحديث".

هذه شهادة مستشرق هداه الله للإسلام، لأنه بحث عن الإسلام، وفى الإسلام بمنهج علمى متحرر من العصبية، بروح متجردة إلا من البحث عن الحقيقة، وصدق الله العظيم ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. (النساء : ٨٢)

٢- حول الفكر الإسلامى وأصالته :

ولقد أثار المستشرقون شبهات أخرى كثيرة حول الإسلام ورسوله وحول العقيدة والوحي، وحول الفلسفة الإسلامية وأصالتها، والتصوف وأصوله، وحول السنة وعلومها.

أ- فالمستشرق "شاخت" وضع كتابه "في أصول الشريعة المحمدية" ولعله أشهر كتاب له، جعله طعناً في كتب السنة الصحيحة ومسانيدها، وقال إن الأحاديث الفقهية وغيرها ظهرت في القرن الثالث الهجري، وأن الفقه ومسائله لم يظهر في عصر محمد ولا في عصر الصحابة، وإنما ظهر بعد هذا الجيل، واستدل بذلك على كذب الأحاديث النبوية، ومع ما في هذه الدعوى من مغالطات وأكاذيب تاريخية، فإن هذا المستشرق لم يكلف نفسه عناء البحث ليعرف أن أقوال الرسول وأفعاله كانت تقوم بين جيل الصحابة مقام كتب الفقه بين الأجيال المتأخرة فضلاً عن أن أحاديث الفقه كغيرها من الأحاديث الأخرى رواها المحدثون بسندها المتصل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وللمحدثين في ذلك منهج في التوثيق أفاد منه إلى حد كبير علماء المناهج المعاصرون، ووصفوه بالدقة والموضوعية وقوة الضبط وسلامة النقل وسار على نفس المنهج في التشكيك في كتب السنة آخرون أمثال "منتوجمرى واط" المستشرق الإنجليزي، و"مارجليوت" و"جولد تسهير" وغيرهم، والأدلة التي يذكرها الواحد منهم على صحة دعواه تجدها مكررة عند غيره كأنهم قد تواصلوا بذلك فيما بينهم وتوارثوها جيلاً بعد جيل.

ب- أما في مجال الفلسفة الإسلامية فقد توطأ كثير من المستشرقين على أكذوبة أن العقل العربي ليس من طبيعته التفلسف، أو حب الفلسفة، لأنه ساذج بطبعه يميل إلى الأخذ بالجزئيات، ولا يعرف التعامل مع القضايا العامة أو الكلية، صرح بذلك "رينان" في كتابه عن اللغات السامية، و"ديبور" في تاريخه للفلسفة الإسلامية، و"بينز" في كتابه عن "مذهب الذرة عند المسلمين".

يقول ديبور في مقدمة كتابه عن مصادر الفلسفة الإسلامية: لم يكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات في الفلسفة غير الأحاجي والأمثال والحكم، وكان هذا التفكير يقوم على نظرات في الإنسان ومصيره، وإذا عرض للعقل السامي ما يعجز عن إدراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة لا تدرك مداها.

ج- ونفس الفكرة صرح بها رينان قبل ديبور، ولا شك أن هذا الحكم خاطئ من أساسه لأنه يتنبئ فكرة مسبقة، وهي تفوق الجنس الآري على الجنس السامي، فالفلسفة الإسلامية ما دامت تنتمي إلى جنس سامي فهي ليست بأصيلة، ولا تشتمل على عناصر جديدة لأن الأصالة والجدة من خصائص الجنس الآري فقط كما يزعمون، وقد يكون هذا الحكم مدعاة إلى طرح سؤال مهم، وهو إذا كانت هذه الفلسفة ليست أصيلة ولا جديدة وخالية من عنصر الابتكار، فلماذا شغلتم أنفسكم بها إلى هذا الحد الكبير..؟ وإجابة ديبور على ذلك تطلعنا على قضية أهم وأخطر، حين تقرأ قوله: فإن هذا البحث له شأن عظيم إذ يتيح لنا فرصة لمقارنة المدنية

الإسلامية بغيرها من المدنيات، والفلسفة ظاهرة فريدة، نشأت في بلاد اليونان في ظروف غير خاضعة لنشأة المدنيات، ولا يمكن تعليلها بأسباب خارجة عنها، إن ذلك يرينا أول محاولة للتغذى بثمرات الفكر اليوناني تغذية أبعد مدى وأوسع حرية مما كان عليه الأمر في نشأة العقائد" أن تتبع أفكار اليونان وامتزاجها في مدينة الشرق الكثيرة العناصر لكثير الفائدة عند ديبور لأنه يجعل ذلك بداية التمدن الحقيقي في بلاد الشرق، وديبور لم يبحث الفلسفة الإسلامية بهدف بيان أصالتها أو مكانتها في مسيرة الحياة الفكرية للإنسانية ككل، ولم يكن تاريخه لها لذاتها ولا حياً فيها، ولا حتى بوصفها واسطة بين الفلسفة اليونانية الأوربية الحديثة كما يزعم البعض -لا- لم يكن هذا هدفاً مقصوداً لديبور ولا لغيره ممن أرخو للفلسفة الإسلامية أو كتبوا عنها، مثل هنري كوربان، وماسينيون، إن ما يهتم به المستشرقون من وراء ذلك التاريخ هو العمل على تكملة وإتمام تاريخ ذلك النهر الفكري في أوروبا، ذلك النهر الذي بدأه فلاسفة اليونان، وما زال عطاؤه متدفقاً إلى يومنا هذا في أوروبا، فإذا انحرف مسار ذلك النهر عن طريقه الطبيعي، وخرج إلى جنس آخر غير أرى كالجنس العربي مثلاً، فإنما ليأخذ بيد شعوبه إلى مسار المدنية والحضارة، ثم ما يلبث أن تعود مياهه إلى مجراها الطبيعي بأوروبا، فدراسة الفلسفة الإسلامى عند المستشرقين يقصدون من ورائها إلى أمور محددة تتصل بحياتهم الفكرية.

١- ذلك أن دراسة الفلسفة الإسلامية تمكنهم أولاً من تتبع دخول أفكار اليونان وتأثيرها في مدينة الشرق، وهذا يعنى عندهم مواصلة التأثير والعطاء للفلسفة اليونانية، وهى من نتاج الجنس الأرى الأوربى.

٢- ودراستها تمكنهم ثانياً من مقارنة المدنية الإسلامية بالمدنية اليونانية مقارنة توضح لهم بجلاء أن الفلسفة لم تظهر فى المدنية الإسلامية من داخلها وإنما وفدت إليها عندما احتكت بالجنس الأرى، وهذا فى حد ذاته يكون برهاناً لهم على أن الفلسفة اليونانية ظاهرة فريدة خاصة بالجنس الأرى فقط، ولم تظهر خارجه، وبالتالي فهى لا تدين لأية حضارة أخرى سابقة عليها.

٣- ودراستها تمكنهم -ثالثاً- من التعرف على أول محاولة للتأثر بثمرات العقل اليونانى من جهة، ومن الوصول إلى أن هذه الفلسفة ارتبطت بها أول نهضة عربية لبيان فضل الفلسفة (الآرية) على الجنس العربى.

إن هذه الأمور الثلاثة أصبحت مؤكدة لدى دارس الفلسفة الإسلامية من المستشرقين ليؤكدوا بذلك أمرين :

١- فوقية الجنس الأرى على ما عداه من أجناس أخرى.

٢- الإلحاح على فكرة المركزية الأوربية بالنسبة للعالم، فكراً وثقافة وحضارة ومدنية، وهذا ما يهدف إليه ديبور وغيره من المستشرقين، إنهم -إذن- لم يدرسوا الفلسفة الإسلامية لذاتها،

وإنما لإستكمال فهمهم للفلسفة اليونانية وللفكر الأوربي بصفة عامة والقصد من ذلك هو محاولة إقناع العالم بأوربة الفكر الإنساني كله والقول بأوربة الحضارة الإنسانية بصفة عامة. فعل ذلك "بيترز" في كتابه مذهب الذرة عند المسلمين وعلاقته بمذاهب اليونان والهند ولقد ظهر هذا الكتاب في الثلاثينات من هذا القرن وهو يحمل العنوان السابق الذى يدل لأول نظرة على مقصده ومضمونه، ويدور الكتاب فى معظم فقراته على سلب العقلية العربية كل خصائص الأصالة والابتكار لينسبها إما إلى الهند مرة، وإما إلى اليونان فى معظم الأحوال، فهو مرة يرجع أصول مقالات المتكلمين فى الجوهر الفرد إلى أصول هندية، ومرات يرجع أصول رأى الرازى فى نفس المكشلة إلى آراء أفلاطون وديقريطس، وقد يتساءل المرء ولماذا الإصرار على إرجاع كل مصادر القول بالذرة عند علماء الكلام إلى أصل هندی، والجواب أن الهنود ليسوا جنسا سامياً، أما العرب فهم ساميون لا يصلحون للإبتكار، ومعنى هذا أن المستشرقون يقبلون أن يكون للهند مذهب مستقل فى الجوهر الفرد، ولا يرضون ذلك للعرب، وهل تستطيع أن تجد لهذا التحكم من تبرير عقلى سوى التعصب لفكرتهم عن تفوق العقل الأرى على بقية الأجناس، ولخطورة هذه الدعوى أود أن أخصصها بشيء من الرد التفصيلى عن أصالة الفكر الإسلامى واستقلاله عن الفلسفة اليونانية.

الفكر الإسلامي بين الأصالة والتقليد :

إن حياة الأمم وتقدمها رهن بقيمة تراثها وأصالتها، فإن الأمة التي لا تراث لها لا ماضى لها ولا تاريخ لها تعتز به، والشعوب التي تعيش بلا تاريخ ليست إلا كتلاً بشرية لا قيمة لها فى ميزان الأمم، والتاريخ فى جوهره ليس إلا تسجيلاً أميناً للجهود البشرية المتطورة والمتطلعة نحو الكمال، والأمة العربية أشد الأمم فى هذه الآونة من التاريخ احتياجاً إلى الدفاع عن تراثها وماضيها، ذلك أن الهجمات عليه قوية ومتوالية ومحكمة، ولم نقرأ فى تاريخ الإنسانية كلها أن ثقافة هوجمت بمثل العنف والشراسة اللذين هوجمت بهما الثقافة العربية والإسلامية بصفة خاصة، فمنذ أن فتح الاستعمار أعينه على منطقة الشرق العربى لم تكد تنقطع حملات التشكيك والتشهير بالفكر الإسلامى ورجاله، ذلك أن الثقافة العربية بخصائصها وروحها القوية كانت سياجاً قوياً وحصناً أميناً ضد الغزوات الفكرية التى تعرضت لها هذه المنطقة على مر التاريخ، ولما حل الاستعمار الحديث بهذه المنطقة مع ما تميز به من أساليب استعمارية امتازت بذكائها ودهائها استطاع أن يدخل على المسلم المعاصر ويلبس عليه الأمور من ناحية التشكيك فى أصالة ما لديه من تراث وقيم.

ولقد بدأت هذه الحملات المسعورة على الفكر الإسلامى إبان القرن التاسع عشر حيث أشيع فى تحامق وتعصب أن تعاليم الإسلام



تتنافى مع النظر العقلي الحر، وأنها لم تأخذ بيد العلم، ولم تنهض بالفلسفة العقلية ولم تنتج الثقافة الإسلامية إلا انحلالاً موعلاً واستبداداً ليس له نهاية. وكان من أخطر هذه الدعاوى قضية المفاضلة بين الأجناس، ولقد ظهرت هذه القضية في القرن التاسع عشر على يد الفيلسوف الفرنسي رينان في كتابه "تاريخ اللغات السامية" الذي صرح فيه بأن الجنس السامي أقل ذكاء ومرتبة من الجنس الآري، وأخذت هذه المفاضلة عند رينان تضي على العرب أوصافاً لم يحم عليها دليل من بحث أو دراسة.

وكذلك الأمر بالنسبة لديبور فإنه لا يمل من تكرار هذه الدعوى القائلة بأن الفلسفة الإسلامية ليست إلا صورة مشوهة للفلسفة اليونانية بعد أن امتزجت بأراء الأفلاطونية المدحثة وليس للعرب في ذلك فضل يذكر سوى أن نقلوا علوم اليونان وفلسفتهم إلى العصر الوسيط بأوروبا المسيحية.

ونستطيع أن نلخص الدعاوى التي قال بها هذان المستشرقان حول هذه القضية في أمور محددة :

- ١- إن العقلية الآرية أفضل من العقلية السامية.
- ٢- إن العقلية العربية تنزع بطبعها إلى رؤية الأشياء متباعدة فهي تدرك الجزئيات ولا تدرك الأمور الكلية.
- ٣- إن الفلسفة الإسلامية ليست إلا تكراراً مشوهاً لأراء أفلاطون وأرسطو.

٤- إن العقلية العربية عاجزة عن الابتكار وليس لها في عالم الفكر من فضل يستحق أن يذكر.

وقد يكون الأمر سهلاً ومقبولاً لو أن هذه الاتهامات كانت قاصرة على المستشرقين وحدهم، إلا أن بعض الدارسين قد أخذ هذه الدعاوى وآمن بها واعتبرها غير قابلة للنقاش أو الرفض.

ولقد تردد صدى هذه الدعاوى في كثير من المؤلفات الحديثة وعلى صفحات الصحف اليومية والأسبوعية، وهذا في حد ذاته يعتبر هدفاً مقصوداً لحملة التشكيك الموجهة ضد الثقافة الإسلامية وتراثها، ونود أن ننبه هنا إلى حقيقة مهمة جداً :

إننا لو فتشنا نحن في الثقافة الغربية وتاريخها وحاولنا أن نقدّها بنفس المقاييس التي تناول بها المستشرقون علماءنا وأسلافنا لما نجا منهم واحد. وهذا أرسطو أعظم فلاسفة اليونان والغرب وقع في كثير من الأخطاء التي كانت أوروبا تدين بها على أنها مسلمة بديهية حتى اكتشف خطأه في القرن الخامس عشر، فلقد رفض أرسطو المذهب القائل بأن أصل الوجود هو الذرة وأخذ بنظرية العناصر الأربعة القائلة بأن أصل الأشياء هو الماء - والهواء - والنار والتراب، وهذه النظرية قد رفضها مفكرو اليونان قبل أرسطو لظهور فسادها وقال أرسطو بأن الجسمين المختلفين الثقل إذا سقطا من شاهق فإن سرعتهما في السقوط تتناسب مع ثقلها تناسباً رأسياً، ومعنى ذلك أننا ألقينا من شاهق حجرين وزن أحدهما كيلو جرام ووزن الآخر



نصف الكيلو، فإن الحجر الأول يصل إلى الأرض في نصف المدة التي يستغرقها الحجر الثاني، وهذا قد ثبت بطلانه كما هو معروف في علوم الطبيعة والرياضيات من قانون النقل النوعي ومقاومة الماء والهواء للأجسام.

وهذا لا يعيب أرسطو، كما لا يعيب بعض مفكري الإسلام إذا وقعوا في أخطاء، فإذا أخذ المستشرقون على العرب أخطاء ومآخذ فهذا شيء لم تخل منه أمة من الأمم حتى تخلو منه الأمة العربية، وأما إذا كانت مآخذ المستشرقين على الثقافة العربية بهدف إنكار أصالتها وسلب فضلها على مسار الحضارة الإنسانية، فمن واجبنا أن نكشف النقاب عن جهود علمائنا وعن فضل الثقافة العربية على النهضة الحديثة، وسوف تكون هذه الدعاوى التي وجهها المستشرقون إلى الثقافة العربية هي مدخلنا إلى توضيح ما للفكر الإسلامي من أصالة وما له من دور هام في حمل لواء الحضارة الإنسانية في وقت كانت أوروبا منغمسة في جهالة القرون الوسطى مكبلة بقيود التقليد الأعمى للحضارات السابقة.

الرد على "رينان" :

أولاً : أما عن قول رينان بأن العقلية العربية أقل شأنًا من العقلية الآرية فهذه دعوى تفتقر إلى الدليل البرهاني، ولا يملك رينان في دعواه هذه إلا التعصب للجنس والثقافة، وما أشبه هذه الدعوى بأكذوبة إسرائيل في وقتنا الحاضر بأنهم شعب الله

المختار الذى يجب أن يسود العالم، ولعل هذه الدعوى الأخيرة امتداد لسابقتها، وما أسهل على المرء أن يرسل الدعاوى العامة على علاتها بلا دليل لكى ينفس بها عن رغبة ملحة أو هوى مكبوت، والمنهج العلمى الصحيح يرفض تماماً أمثال هذه الدعاوى، ومن الخطأ الفاحش أن يظن رينان أن الفلسفة الإسلامية وليدة الفكر العربى وحده، أو العقلية العربية وحدها. فلقد أسهم فيها مفكرون من شعوب أخرى مختلفة الجنس واللون من فرس وهنود وأتراك وسوريين ومصريين وبربر وأندلسيين.

ثانياً : الاسلام قد حث أبناءه على المعرفة وطلب العلم ولم يقف فى وجه طالب العلم أياً كان هذا العلم -عكس دعوى رينان- بل إن الإسلام جعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وقال لأبنائه اطلبوا العلم ولو بالصين، وكلمة العلم ينبغى أن تفهم هنا بمعناه العام المطلق الذى يشمل العلم الدينى والدينىوى معاً، وليس كما يدعيه بعض الباحثين بأن الإسلام لا يعرف العلم، إلا بالمعنى الدينى فقط، ولو كان المراد بالعلم هنا معناه العلم الدينى فقط، لما حثهم الرسول على الترحال فى طلبه إلى الصين فى الوقت الذى كان هو موجوداً بين أظهرهم وهو مصدر كل علم دينى للمسلمين.

ثالثاً : وإذا كان الجزء الأول من دعوى رينان يدل على تعصبه لجنسه فإن الجزء الأخير من هذه الدعاوى يدل على جهله بروح الإسلام وموقفه من العلم والنظر والتأمل الفكرى المنزه عن

الهوى والغرض إلا لطلبه الحق، فما كان الإسلام - وكتابه المقدس يدعو إلى التأمل فى آفاق السموات والأرض ليضيق الخناق على أبنائه ويمنعهم من النظر والتأمل فى هذا الكون وما فيه من آيات.

رابعاً : على أن رينان قد تناقض مع نفسه فى موقفه من الفكر الإسلامى، فهو حين ينكر الفلسفة الإسلامية ويجحد أصالتها فى كتابه تاريخ اللغات السامية يعود فى كتابه عن ابن رشد ومذهبه فيقرر أن هناك فلسفة إسلامية مستقلة يجب أن نتلمسها فى مظانها الخاصة بها، وأن العرب قد عرفوا كيف يخلقون لأنفسهم فلسفة ملأى بالعناصر الخاصة بهم، وإن الحركة الفلسفة الحقيقية فى الإسلام ينبغى أن تتلمس فى مذاهب المتكلمين، وهذا الموقف المضطرب إن دل على شئ فإنما يدل على أن أحكام رينان على الفلسفة الإسلامية ليست مؤسسة على النظرة العلمية النزيهة، ولا على معرفة تامة بالفلسفة الإسلامية وتراثها.

خامساً : وأما اتهام رينان وديبور للتفكير العربى، بأنه يهتم بالجزئيات المتباعدة فذلك شئ ينبغى أن يحمد للعرب كما قال بذلك استاذنا المرحوم محمود قاسم، لأن المنهج العلمى الحديث يقوم أساساً على خطوات محددة، وأول هذه الخطوات هى ما يسمى بمرحلة البحث، وفيها يقوم الباحث بجمع الملاحظات والتجارب فى العلوم الطبيعية والإنسانية على سواء، وجمع الملاحظات ليس إلا ملاحظة الأشياء الجزئية المتباعدة، ثم يحاول الباحث أن يربط بين هذه الملاحظات الفردية بما يتخيله من علاقات

عليه في رأيه حول طبيعة النفس وجوهرها، كما أن ابن رشد قد رد كثيراً من أقوال أرسطو في المنطق وطبيعة النفس، وألف ابن تيمية كتاباً مستقلاً عن نقض منطق أرسطو بين فيه تهافت هذا المنطق عن تحصيل الجديد من العلوم، ولا شك أن نقل العرب هذه العلوم إلى أوروبا كان فاتحة لعصر النهضة الحديثة وهذا في حد ذاته مجهود كان لابد منه لبعث روح الحضارة التي كانت قد ماتت في أوروبا، ولقد تصدى للرد على هذه الدعاوى في القرن التاسع عشر السيد جمال الدين الأفغاني في كتابه الرد على الدهريين ونشر هذه الرد في مجلة العروة الوثقى، كما رد عليها أيضاً الإمام محمد عبده في مجلة المنار، وحين تجددت هذه الدعاوى بعد الحرب العالمية الأولى كتب الشيخ مصطفى عبدالرازق كتابه تمهيد لتاريخ الفلسفة في الإسلام ناقش فيه هذه الأقوال مناقشة مستفيضة كما تناولها أيضاً كل من الأستاذين الدكتور إبراهيم بيومي مذكور في كتابه العظيم في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، والدكتور محمود قاسم في كتابه نظرية المعرفة عند ابن رشد.

ج- وأما قول ديبور بأن العقل العربي لم يبتكر شيئاً في مجال الفكر يستحق التسجيل فيكفي لإبطال ذلك أن نورد هنا بعض الأمثلة من مختلف العلوم التي كان للعرب فضل السبق إليها والابتكار فيها، ولن يكون اختيارياً لهذه الأمثلة اختياراً عشوائياً وإنما سنورد أمثلة من العلوم التجريبية التي هي بحق مقياس النهضة الأوربية في عصرنا الحاضر.

١- فى العلوم الرياضىة :

إن تاريخ الرياضيات المعاصرة يدين بالفضل إلى حد كبير لثراث العرب وما خلفوه من مؤلفات فى هذا العلم ظلت حبيسة المكتبات والمتاحف وفى بطون المخطوطات إلى وقت قريب، وللأسف الشديد فقد اهتم غير المسلمين وغير العرب بهذا التراث ونفضوا عنه غبار الزمن وفتحوا له صدورهم وعقولهم وأنشأوا لإحيائه المؤسسات والمراكز البحثية ورصدوا لطباعته ونشره الميزانيات الضخمة، بل إن العرب والمسلمين لم يعرفوا قيمة هذا التراث إلا بعد أن وقف الغرب على نشره وتحقيقه الجهود الكبيرة، ولعل من أكبر المهتمين بإبراز دور العرب فى النهضة العلمية فى أوربا "جورج سارتون" فى كتابه "تاريخ العلم"، و"ل ديورانت" فى كتابه "قصة الحضارة"، كما أفرد العالم الإيطالى "أولدو ميلى Oldo Mieli" مجلداً خاصاً لبيان فضل العرب فى الرياضيات، وكذلك ينبغى ألا ننكر فضل "يوسكوفيتش" فى كتابه "تاريخ الرياضيات" حيث عقد فصلاً خاصاً أسماء الرياضيات العربية.

ولقد اطلع العرب على علوم الأمم الأخرى حيث امتزجت الحضارة الإسلامية بالحضارات المجاورة للأمم الأخرى فى الهند وفارس وصارت بغداد بوتقة انصهرت فيها هذه الحضارات فى مدرستى الكوفة، والبصرة، وفى بغداد العاصمة التى تأسست فيها مدرسة رياضية كبيرة تمت فيها ترجمة رياضيات "أرشميدس" و"بطليموس"، وانتقلت إليها نظريات "فيثاغورس" فى الهندسة.



ولم يقف جهد العقل العربي في الرياضيات على مجرد الاختراع فقط بل تعدى ذلك إلى الاختراع والابتكار :

١- الأعداد :

وقف العرب على نظام الأعداد والترقيم للأمم المجاورة واستحسنوا فيها الأرقام الهندية فأخذوا بها وطوروها ونظموا أشكالها حيث لم تكن موحدة بالشكل الذي نعرفه الآن فوحدها العرب وهذبوها وتفرع عنها نوعان من الأرقام عرفت إحداهما بالأرقام الهندية وهي التي يستعملها أكثر شعوب العالم العربي الآن. كما عرفت الثانية بالأرقام الغبارية أو الأرقام "الفاسية" نسبة إلى فاس بالمغرب واشتهرت هذه الأرقام الأخيرة ببلاد المغرب والأندلس ولا زالت تستعمل بها حتى الآن، وهي التي تعرف في أوروبا بالأرقام العربية، وكان أهم ما في هذه الأرقام الصفر الذي ساعد على وضع الأرقام في سلسلة مضاعفات العشرة والمئة والألف. ومن الجدير بالذكر أن كلمة صفر عربية وهي ترجمة للكلمة السنسكريتية Sumga وتعنى الفراغ. وأول تمثيل للصفر على شكل نقطة ظهر على قرطاس يرجع تاريخه إلى عام ٨٧٣م^(٢)، والصفر لم يكتشف في الهند إلا في القرن الثامن الميلادي ونقله العرب عنهم وبدأوا العمل به قبل أن يتقدم الهنود في استعماله ومن العجيب حقاً أن أول كتاب ألف بالعربية

(٢) إسهام علماء الإسلام في الرياضيات، عبدالله طحطاح، عالم الفكر، المجلد الحادي عشر، العدد الأول، ص ٢٨٦.

وظهر فيه الصفر مرسوماً نقطة كما نرسمه اليوم ظهر سنة ٢٧٤هـ الموافق ٨٧٤م. بينما أول نقش هندي ظهر فيه الصفر يرجع تاريخه إلى سنة ٨٧٦م أي بعد استعمال العرب الصفر في كتبهم بعامين^(٣).

ولاشك أن العالم عرف الأرقام العددية والصفر الهندي عن طريق العرب وليس عن طريق الهنود ولا تزال هذه الأرقام تحمل اسمها العربي إلى اليوم في أوروبا، وكذلك الصفر فإنه في الإنجليزية صيفر (Cipher) وفي الألمانية تصفر (Ziffer) وفي الفرنسية شيفر (Chiffre) وفي الإيطالية شفرا (Cifra) وبواسطة الصفر أمكن تحديد مراتب الأعداد وقيمتها حسب موضع الصفر منها يميناً أو يساراً، والعرب لم يفهموا الصفر على أنه عدم كما يفهم الناس ذلك خطأ ولا كما فهمه الأوروبيون أول أمرهم حين سموه (Nol) ويعنون به عدم بل أن الصفر قيمة ما يطرأ بسببها تبدل أساسى على الأعداد المأخوذة معه حسب موضعه فيها يميناً أو يساراً.

ب- ولقد استطاع غياث الدين الكاشى في أول القرن التاسع الهجرى أن يستخرج نسبة محيط الدائرة إلى قطرها بصورة أدق مما نعرفه عليها اليوم^(٤).

ج- وأول من ألف في الجبر هو المفكر العربى "الخوارزمى" صاحب كتاب حساب الجبر والمقابلة. واستطاع أن يحل

(٣) نشرة معهد المخطوطات العربية سنة ١٩٦٨م.

(٤) المنطق الحديث د. قاسم ٣٣.

معادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة واستطاع عمر الخيام المتوفى ٥١٧هـ حل المعادلات من الدرجة الرابعة وهذا أرقى ما وصل إليه علماء الرياضيات في عصرنا الحاضر.

د- كما سبق العرب إلى اكتشاف النظرية القائلة بأن مجموع عددين مكعبين لا يكون عدداً مكعباً وهذا هو أساس النظرية التي اشتهر بها الرياضى الفرنسى "بيبر" المتوفى سنة ١٦٦٥م، وفضل العرب على علم التفاضل والتكامل لا ينكره أحد.

٣- فى العلوم الطبيعية :

اهتم العرب بهذه العلوم فى فترة مبكرة من التاريخ، فلقد اشتغل خالد بن يزيد الملقب بحكيم آل مروان بعلم الكيمياء فى القرن الأول للهجرة وانتدب لذلك جماعة من مدرسة الإسكندرية بمصر سنة ٦٨٣م، وأمر أحدهم وهو اصطفن الإسكندرى بنقل كتب الكيمياء إلى العربية حتى يقف العرب على حقيقتها، ولعل هذه أول ترجمة حدثت فى الإسلام، ثم جاء جابر بن حيان فبلغ فى ذلك شأنًا عظيمًا، على أن مجهودات البيرونى وابن الهيثم والكندى فى هذه العلوم لا يجهلها أحد من المشتغلين بها، ويكفى أن كتاب "المناظر فى البصريات" لابن الهيثم فى قوانين الضوء يعد جزءاً من العلم الحديث إلى اليوم خاصة إذا علمنا أن كتب ابن الهيثم ترجمت إلى اللاتينية فى زمن متقدم على النهضة الحديثة، ولقد أفاد منه روجر بيكون سنة ١٢٩٢ وجون بكام سنة ١٢٩١هـ ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن عالماً متقدماً كابن الهيثم

قد راودته فكرة بناء السد العالى للانتفاع بنيل مصر قبل تنفيذ هذه
الفكرة بما يزيد على الألف عام.

ومن الذى يستطيع أن ينكر فضل العرب فى الطب بعد أن
ذاعت شهرة الأطباء العرب فى أوربا كلها عبر العصور الوسطى،
فلقد عرف العرب الطب والتشريح وعلوم الصيدلة فى وقت مبكر من
التاريخ ابتداء من الكندى والرازى وعلى بن العباس، كما ظهرت
المؤلفات الطبية فى الفكر العربى، أما كتاب القانون لابن سينا فأشهر
من أن يشار إليه، فلقد اعتبرته الجامعات الأوربية أهم مرجع فى
الطب فى العصور الوسطى، فكان يدرس فى مدارسها وجامعاتها
على حد سواء، ولقد ترجمه إلى اللاتينية (جيزار الكريمنى المتوفى
سنة ١١٨٧م) فى طليطلة، ولم تكد طبعته اللاتينية تظهر فى حوالى
سنة ١٤٧٣م حتى لقى الكتاب شهرة كبيرة فنقل إلى اللهجات المحلية،
وأول من اعترف بالقانون كمراجع أساسى فى الطب هى جامعة
بولونا فى القرن الثالث عشر للميلاد، حيث أنشئت كلية العلوم فى تلك
الجامعة سنة ١٢٦٠م ومنذ لك التاريخ بدأ قانون ابن سينا غزو
جامعات أوروبا وإنجلترا واسكتلندا وأصبح هذا الكتاب يمثل نصف
المقررات الطبية فى أواخر القرن الخامس عشر.

وترجع قيمة هذا الكتاب إلى أن مؤلفه قد عرض فيه الكثير من
الأمراض ووصف علاجها مع ملاحظات مبتكرة فى تشخيص نوع
المرض ووصف العلاج له، ومن ابتكارات ابن سينا فى هذا الكتاب



تعرضه لخصائص العدوى فى أمراض الرئة والأمراض التناسلية والاضطرابات العصبية والنفسية عن طريق تحليلاته النفسية التى يعد مذهبها فيها منهجاً قائماً بذاته.

٣- فى مناهج العلوم :

لعل من أحدث الدراسات التى يعنى بها الآن هو دراسة المناهج للعلوم المختلفة وتطبيقاتها، وإذا كان المختصون بدراسة مناهج البحث فى العلوم يولون أهمية كبرى لما يجدونه من تحديد دقيق لهذه المناهج لدى مفكرى أوروبا المحدثين فمن الأجدر بهم أن يبحثوا عن أصول لهذه المناهج فى تاريخ الفكر الإسلامى حتى ينسبوا الفضل إلى أهله، ولقد قام المرحوم الدكتور محمود قاسم بإلقاء بحث عن دور العرب فى تحديد مناهج العلوم الإنسانية كشف فيه زيف ما يدعيه المستشرقون من أن العرب ليس لهم فضل يذكر فى هذا المجال.

ولا يستطيع المجال هنا لعرض تفاصيل ما قام به العرب من دور هام فى تحديد مناهج العلوم، لأن هذه المناهج كانت مطبقة فعلاً فى العلوم العربية والإسلامية فالإمام الشافعى قد عرف القياس والاستقراء وطبقهما فى مذهبه الفقهى، وكذا علماء الفقه والأصول واللغة فضلاً عما قام به علماء الحديث فى هذا المجال، ويكفى أن نشير هنا إلى نموذجين مختلفين من مفكرى الإسلام كابن تيمية وابن خلدون لنرى أن عناصر المنهج العلمى الحديث كانت واضحة لديهما تمام الوضوح.

أولاً : أما ابن تيمية فإنه يعكس فى تراثه كله العقلية المنهجية بوضوح كامل رغم تشدده مع خصومه من الفلاسفة وعلماء الكلام والصوفية ولقد هاجم هذا المفكر الفلسفة الأرسطية المتمثلة فى تراث الفارابى وابن سينا كما هاجم الغزالى والرازى فى كثير من كتبه، لكنه كان يعتمد فى موقفه من هؤلاء وأولئك على الاستقراء الكامل لرأى مخالفه فى المشاكل الفلسفية المتعددة فيجمع العناصر الفرعية لآرائهم كل على حدة ثم يربط بينها ويستنتج منها الحلول والأحكام التى يصدرها على هؤلاء، وهذا المنهج الذى طبقه ابن تيمية قد هداه إلى اكتشاف أوجه النقص فى المنهج اليونانى فى منطق أرسطو بالذات، ووضع لكشف أخطاء المنطق الأرسطى كتابين هما "نقض المنطق، والرد على المنطقين" وكشف ابن تيمية فى هذين الكتابين عن قواعد منهجية كبرى وجدناها مطبقة لدى مفكرى أوروبا فى القرن السابع عشرة فمثلاً نقض ابن تيمية الفكرة التى سادت فى أوروبا عصوراً طويلة وهى القائلة بأن منطق أرسطو هو الأداة أو المنهج العلمى الذى يجب تحصيله كشرط ضرورى لكسب المعرفة فى مختلف فروع الدراسة، ويقول ابن تيمية "إن الحاذقين فى العلوم الطبيعية والطبية لم يستعينوا بالمنطق وأبو الطب أبقراط له كلام مقبول من جميع الأطباء وقد وجدنا مصداق قوله بالتجارب ومع ذلك لم يستعن بشيء من هذه الصناعة (المنطق).

كذلك فطن ابن تيمية إلى أن منطق أرسطو ليس في الحقيقة إلا
تحصيل حاصل بمعنى أنه لا يضيف جديداً من المعارف إلى من يأخذ
به، وأحسن ما يقدمه المنطق أنه يستخدم في عرض المعلومات التي
تكون قد اكتسبت بخبرتنا السابقة.

ويقرر ابن تيمية أن علماء الطب والحساب والنحو وأهل
العلوم المختلفة لا يستعينون في مؤلفاتهم بالحدود المنطقية، وأن
القياس المنطقي الذي وضعوه وحددوه لا يعلم بمجرد شيء من
العلوم الكلية الثابتة في الخارج وينتهي ابن تيمية إلى تقرير حقيقة
منطق أرسطو حين يقول "أما بعد فإنني كنت دائماً أعلم أن المنطق
اليوناني لا يحتاج إليه الذكي ولا ينتفع به الغبي، ولكني كنت أحسب
أن قضاياها صادقة لما رأيته من صدق الكثير منها، ثم تبين لي فيما
بعد خطأ طائفة من قضاياها.

وإذا تركنا موقف ابن تيمية من منطق أرسطو لنرى ما يقول
ديكارت في القرن السابع عشر عن هذا المنطق لم نجد لديه أكثر مما
قال ابن تيمية قبل ذلك بثلاثة قرون، لقد قال ديكارت أن القياس
يستخدم بالأحرى لكي يفسر المرء للأخرين الأشياء التي يعلمونها بدلاً
من أن يكشف لهم عن تلك التي يجهلونها، ولذلك فمن واجب
المفكرين أن يقلعوا عن استخدام القياس على النحو الذي كان يفعله
أتباع أرسطو حتى القرن السابع عشر أو وجست كونت كان يردد في
القرن الماضي ما قاله ابن تيمية عن منطق أرسطو أما في القرن
الثالث عشر الذي كانت علوم العرب تغزو فيه أوروبا فإننا نجد

وروجر بيكون يدعو معاصريه ألا يصبوا لعناتهم على الرياضة والملاحظة والتجارب بدعوى أنها علوم عربية وإسلامية، بل عليهم أن يفسحوا المجال لها إيماناً منه بأن ذلك هو الطريق إلى منهج جديد وروجر بيكون هذا هو الذى لقبه رينان بأنه الأمير الحقيقى للفكر الأوروبى فى القرن الثالث عشر^(٥).

ثانياً : أما ابن خلدون فبالإضافة إلى أنه أول من أسس علم الاجتماع على منهج علمى سليم قائم على استقراء أحوال البلاد وظروفها الطبيعية فإنه قد اهتدى إلى أن هناك نوعين من الاستقراء أحدهما فطرى والآخر علمى. وهذه الفكرة وجدناها عند كلودبارنارد فى القرن التاسع عشر وشرح كل من هذين المفكرين لهذين النوعين من الاستقراء يكاد يكون واحداً. فرغم اختلاف الاستقراء الفطرى عن الاستقراء العلمى فى الدرجة إلا أن كلاهما طريق صحيح لكسب المعلومات الجديدة التى لا يمكن الوصول إليهما عن طريق القياس اليونانى، وابن خلدون يشرح الاستقراء الفطرى بأنه عبارة عن المعانى التى يستخدمها المرء فى التطبيق العلمى دون أن يشعر بها لأنها من المعانى التى اكتسبها عن طريق الخبرة الزمنية، وهذه المعانى لا تبعد عن الشعور ولا يلتفت إليها المرء ليتعمق فيها، يقول ابن خلدون "بل كلها تدرك بالتجربة وبها تستفيد، لأنها

(٥) عبقرية العرب : عمر فرج، ص ٦٤.

معان جزئية تتعلق بالمحسوسات وصدقها وكذبها يظهر قريباً
من الواقع فيستفيد طالبها حصول العلم بها.

وفى هذا النص نجد أن خطوات المنهج الاستقرائي الفطرى
محددة وواضحة حيث يجمع المرء الوقائع الجزئية عن طريق
التجارب اليومية ثم يضع فروضاً تكاد تكون غير شعورية ثم يتحقق
من صدقها أو كذبها بالواقع.

وما سماه ابن خلدون بالاستقراء الفطرى هو ما أطلق عليه
كلود بارتارد بالخبرة العملية غير الشعورية التى يكتسبها المرء
بمباشرة الأشياء ومع ذلك فمن الضرورى أن تكون هذه المعرفة
المكتسبة بهذا الطريق مصحوبة بتفكير تجريبيى غامض يتم بطريقة
غير شعورية يقوم بها الإنسان دون أن يدري، وفرق ابن خلدون بين
الاستقراء الفطرى والعلمى، فإن الاستقراء العلمى يتم بطريقة
شعورية للوصول إلى غاية محددة، وذلك بأن ينتقل الباحث بطريقة
مقصودة من دراسة الأمثلة الجزئية حتى يصل إلى القاعدة العامة.

هذه بعض النماذج التى ذخر الفكر العربى بالكثير منها فى
وقت كانت أوروبا تقف فيه من هذا التراث موقف التلميذ المتلقى، ولا
أدل على ذلك مما كتب فى دائرة المعارف البريطانية^(٦).

لا يستطيع أحد أن ينكر ما اتصف به التفكير الغربى فى
العصور الوسطى من البعد التام عن العلم وعن النقد. أن وجود شخص

(٦) ج ١٧/١٠٤١٠ ط ١١.

واحد مثل روجر بيكون فى عصر ما لا يبرى ذلك العصر من تهمة الجهل "ولقد أبدى بيكون إعجابه فى أكثر من موقف من الرجل الذى يريد أن يبحث فى الفلسفة دون أن يعرف اللغة العربية^(٧)، وهذا يعتبر اعترافاً صريحاً من روجر بيكون بقيمة الزاد الحضارى الذى أمكن أن تقدمه هذه اللغة فى تراثها، ولا يخفى أن هذا المفكر نفسه قد أفاد من هذه اللغة وتراثها بحيث اعتبره الأوربيون أباً للفكر الحديث.

٣- بين الاستشراق والاستعمار :

يعتبر الاستشراق من أهم الوسائل التى مهدت للاستعمار العسكرى وغزو الشرق ثقافياً وعسكرياً، والاستعمار الحديث يعتمد على المستشرقين بصورة فعالة فى دراسة نفسية الشعوب، وعاداتها، وتقاليدها، وأفضل الوسائل للسيطرة عليها بأقل قدر ممكن من التكاليف، والذى يتابع أحداث القرن التاسع عشر والقرن العشرين (وهما أكثر القرون فى النشاط الاستعمارى) يعلم مدى الصلة القوية بين الاستعمار والاستشراق، ومن هنا فإننا نجد فى كثير من سفارات الدول الاستعمارية مستشرقين عاملين بها، ويقع على عاتق هؤلاء المستشرقين مهمة الاتصال بالعقول المفكرة فى البلاد التى يريدون السيطرة عليها ثقافياً أو عسكرياً وكذلك الاتصال بكبار العاملين فى المناصب القيادية فى مجالات الثقافة والإعلام والتعليم العام والجامعى، ولا تنقصهم الوسائل المناسبة فى محاولة احتواء هذه

(٧) انظر فروخ ١١٥ 46 Addison .

الشخصيات عن طريق الصداقة أو المشاركة فى أعمال ثقافية أو تقديم الخبرة لهم، أو.. أو.. إلخ، وعن طريق هذه الشخصيات يستطيعون تنفيذ خططهم فى غزو البلاد فكراً ثم عسكرياً إذا اقتضى الأمر، وقد استطاع الاستعمار الحديث أن يغزو معظم البلاد الإسلامية فكراً وثقافياً عن هذا الطريق، كما استطاع أن ينفذ خطته فى السيطرة على عقول كثير من المفكرين فى بلادهم ليكونوا هم الأداة لتنفيذ برامج الاستعمار فى هذه البلاد.

وبلغ الأمر فى ذلك مبلغاً خطيراً، حتى إن كثيراً من المشتغلين بالثقافة جعلوا أنفسهم بمثابة وكلاء عن المستشرقين فى توزيع أفكارهم والدعوة إلى تبني آرائهم فى الفكر الإسلامى وقضاياها، فهذا مندوب عن ماركس والشيوعية، وذاك مندوب عن الوضعية والوضعيين، وثالثهم مندوب الوجودية والوجوديين، وآخر يدعوا إلى القول بتأنيس الأله أو تأليه الإنسان... إلخ وامتلت المؤسسات الثقافية فى مصر والشام وشمال أفريقيا بوكلاء معتمدين لتوزيع الفكر الاستشراقى على المؤسسات العربية، وشحذ الوجدان العربى بمفاهيمهم تحت مقولات مضللة كالتنوير والتقدمية والنهضوية .. إلخ.

ولقد عمد هؤلاء إلى إثارة الفتنة حول بعض القضايا الخلافية فى الفكر الإسلامى وعملوا على إحياء الخلافات حولها.

فلقد آثروا فتنة كبيرة حول ما أسموه بقضايا المرأة فى الإسلام، مثل قضية الطلاق، وتعدد الزوجات والعصمة. وتعدد

زوجات الرسول.. الخ، ونقلوا إلى العالم الإسلامي مشكلات دخيلة لا وجود لها أصلاً في الإسلام وإنما هي موجودة في الغرب بحكم ثقافته وديانته، وشغل المسلمون أنفسهم بهذه المشكلات، وبالبحث عن حلول لها، وكان هذا مجالاً واسعاً للفرقة والتعصب والتحزب للرأى ضد الرأى الآخر ومازال المسلمون يكتبون بنار هذه الفرقة إلى الآن.

وكان من الآثار الخطيرة التي ترتبت على إثارة هذه القضايا أن فريقاً كبيراً من المثقفين العرب قد انقادوا وراء هذه الضجة وأخذ البعض يتولى نيابة عن المستشرقين - إثارة هذه الفتنة بين صفوف المسلمين، ويتبنى آراءهم ويدعو إلى الأخذ بأفكارهم، وبدلاً من أن يكون الخلاف دائراً بين المسلمين كوحدة متماسكة والمستشرقين كجبهة مضادة انتقلت المعركة إلى أرض المسلمين أنفسهم لتفترق صفوفهم وتمزق وحدتهم، فأصبحوا جبهات متعارضة بين مؤيد ومعارض، بين رافض للفكر الاستشراقى وموقفه من الإسلام، ومؤيد ومبرر له تحت دعوى التنوير والتقدمية، وهذه الفرقة فى الصف الإسلامى هى فى حد ذاتها تمثل هدفاً وغاية سعى المستعمر لتحقيقها خلال جهود المستشرقين فى ذلك، وكان شغل المسلمين بعضهم بعضاً حول هذه الخلافات التافهة واستنفاد وقتهم وجهدهم فى ذلك وانشغالهم عن قضايا مستقبل أمتهم الذى يعبث غيرهم به كان ذلك كله تحقيقاً لأهداف سعى المستشرقون من ورائها إلى السيطرة على عقول نخبة كبيرة من المشتغلين بالثقافة العربية فى بلادنا واستطاعوا من خلال

السيطرة على هذه العقول أن ينفثوا سمومهم فى حاضر الثقافة العربية بالتشويه أحياناً وبالتشكيك أحياناً أخرى، وسوف أعرض بإيجاز شديد لبعض النماذج الفكرية التى تبنت هذا الفكر الاستشراقى ودعت إليه.

١- ففى مطلع هذا القرن نادى سلامة موسى بوجوب التخلص من الغيبيات حتى نستطيع أن ننهض كما نهضت أوروبا "..أى النظر إلى هذه النيا كأنها الغاية التى ليس وراءها غاية تخدم، وأننا نحن البشر يجب أن تكون لنا آدب وفلسفات وعلوم لا تمت بأى صلة إلى الغيبيات، إن علينا أن نعتمد على أنفسنا فى تحقيق السعادة على هذه الأرض نفسها وألا نزهد فيها إيثاراً عليها للعالم الثانى كما هى النظرة الغيبية.. والنهضة الأوروبية التى أخرجت أوروبا من ظلمات القرون الوسطى لا تعنى شيئاً آخر غير ذلك"^(٨).

ثم يصرح فى موضع آخر بضرورة التخلص من العقائد الدينية والاعتماد كلياً على العقل. " .. إذا ليس فى الكون كله ما يعتمد عليه سوى العقل، وليس للإنسان خلاف هذا العالم عالم آخر يمكنه أن يطمع فى تحقيق سعادته فيه.. وأن الانحطاط لم يعن فى القرون الوسطى. وهو لا يعنى الآن فى الشرق أو الغرب سوى قصر الذهن البشرى على خدمة ما وراء الطبيعة ونشدان السعادة والهناء فى غير هذه الأرض"^(٩).

(٨) سلامة موسى، ما هى النهضة، ص ١٥ بتصرف.

(٩) نفس المرجع، ص ١٦.

ولا يألو سلامة موسى جهداً في تكرار القول بوجوب محاكاة الحضارة الأوروبية حتى نحيا حياة كريمة "إذ لا يمكن لأمة أن تحيا إذا خالفتها.. ولا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوروبية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون"^(١٠).

٢- وكتب قاسم أمين قبل ذلك كتابه عن تحرير المرأة أثار فيه مشكلات لا وجود لها إلا في ذهن المستشرقين ونادى فيه بوجوب أن تحذو المرأة المسلمة حذو المرأة في أوروبا وفرنسا بالذات شبراً بشبر، وأن ترفع صوتها رافضة قضية تعدد الزوجات، وحقها في الطلاق.. الخ.

٣- أما على عبدالرازق، فألف كتابه عن "الإسلام وأصول الحكم" ليعلن فيه أن الإسلام دين لا دولة. عقيدة لا شريعة، وحي لا دستور، وليس في الإسلام نظام لسياسة الدولة^(١١) والكتاب من أوله إلى آخره يعرض الآراء التي استقاها المؤلف من كتابات المستشرقين عن الدين دون أن يدركوا الفوارق الأساسية بين مفهوم كلمة الدين المسيحي كما عاشوه في أوروبا والدين الإسلامي كما هو في الكتاب والسنة، وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة بين علماء الأزهر الشريف، حيث قرر الأزهر منع تداول الكتاب وعدم طباعته، وفصل صاحبه من سلك القضاء الذي كان يعمل به.

(١٠) نفس المرجع السابق، ص ٩٠.

(١١) راجع الإلام وأصول الحكم، على عبدالرازق، ص. القاهرة، سنة ١٩٢٥م.

٤- كما سار على نفس النهج طه حسين في كتابه عن "الشعر الجاهلي" الذي حاول فيه أن يطبق مقاييس منهج ديكرارت في الشك على نصوص القرآن الكريم، وطبقاً لهذه المقاييس النقدية فإنه لا يكون هناك شيء مقدس فوق النقد ومن خلال تطبيقه لهذا المنهج النقدي، قال بأن قصة إسماعيل الذبيح الذي ينتمي إليه العرب، قصة خيالية حيث "كانت قریش مستعدة لقبول هذه الأسطورة وأمر هذه القصة واضح قبل الإسلام واستغلها الإسلام لسبب ديني وقبلتها مكة لسبب ديني وسياسي.

كما صرح بما هو أخطر من ذلك حيث يقول : ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب، فلو كان كذلك لما فهموه ولما وعوه، ولا آمن بعضهم، ولا ناهضه وجادل فيه بعضهم الآخر" (١٢).

كما صرح طه حسين في كتابه "مستقبل الثقافة في مصر" بضرورة محاكاة الغرب فننام كما ينامون.. ونأكل كما يأكلون، ونتكلم بلغتهم كما يتكلمون. وهذا ما نادى به سلامة موسى وغيره.. وهذه قضية كبيرة لا تحتاج في مقامنا هذا إلى تفصيل ولكن أردت من ذكر هذه النماذج أن أضعها أمام القراء حتى لا نخدع أنفسنا بشعارات زائفة تحت شعار التنوير والتقدمية.

وهناك نماذج أخرى كثيرة لم يكن لديها قدر كاف من المعرفة الدقيقة بالثقافة الإسلامية وخصائصها لأنه بدأ حياته على موائد

الغرب الثقافية واكتفى بعضهم بأن يكتب - ساخراً - عن تطبيق الشريعة الإسلامية وتنفيذ الحدود في السارق والزاني وشارب الخمر، ويقول على سبيل السخرية: من الذى يتولى قطع يد السارق الجزار أم رئيس الجمهورية. وحاولوا من خلال مراكزهم الاجتماعية فى وسائل الإعلام أن يكتبوا المسرحيات والمسلسلات التليفزيونية التى تسخر من رجل الدين ورجال اللغة العربية وتعالج منهم كرموز للفكر الإسلامى والقائمين على حراسته، وكم من مسرحيات أو مسلسلات كتبها أصحابها لهذا الغرض وكان أثرها فى نفسية المجتمع أشد وأعظم من وقع الحسام على الرقاب، وترتب على ذلك أن تغيرت نظرة المجتمع إلى معلم الدين ومعلم اللغة العربية وتراجعت مكانة كل منهم عن الصدارة الاجتماعية ليحل محلها الرجل (المودرنيزم) الذى صنعه الاستشراق على عينه وتعهده وكلاء الاستشراق فى بلادنا بالمناصب القيادية المؤثرة فى توجيه الرأى العام فى المجتمع.. ليقول للناس: ما أرىكم فى وسائل إعلامكم إلا ما أرى.

ولقد كان للبلاد الإسلامية نصيب موفور فى هذا الشأن، وكانت الوسائل الاستعمارية التى نادى بها الاستشراق فى العالم الإسلامى تهدف كلها إلى إضعاف الروح الإسلامية بين الشعوب، وتعمل على بث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد ليسهل بعد ذلك السيطرة عليها، كما روج المستشرقون كذلك لبعض القضايا التى كان لها أخطر النتائج فى ازدياد عوامل الفرقة بين صفوف المسلمين، فمن ذلك مثلاً:

١- العمل على إحلال العاميات محل اللغة الفصحى فى مصر

وغيرها بدعوى أن الفصحى ليست قادرة على مسايرة الكشوف العلمية المتطورة، وكان أول من نادى بها فى مصر المستشرق الألمانى (ولهلم سبيتا) وكان يعمل مديراً لدار الكتب المصرية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، ووضع كتابه (قواعد اللغة العامية فى مصر) سنة ١٨٨٠م مجد فيه اللغة القبطية فى مصر، ودعا العالم العربى إلى الأخذ بالعاميات بدلاً من الفصحى، ولا يخفى ما فى هذه الدعوى من الخطر على الإسلام ولغة القرآن.

ثم تابع نفس القضية (اللورد دوفرين) فى تقرير وضعه سنة ١٨٨٢م أعلن فيه أن العامية هى سبيل النهوض والتقدم فى مصر، وجاء بعده المستشرق الألمانى (كارل فولرس) مدير دار الكتب المصرية بعد "ولهلم" فوضع كتابه (اللهجة العامية الحديثة) دعا فيه إلى هجر الفصحى وحث العرب على استخدام الحروف اللاتينية بدلاً من العربية، ثم تتبع القضية فى مصر سلامة موسى النصرانى فى مطلع هذا القرن، ومازلنا نسمع صداها إلى الآن ونقرأ ذلك فى كتابات بعض المشتغلين بالشئون الثقافية والتربوية.

٢- أما القضية الثانية : تتلخص فى تلك المحاولة التى يقوم بها المستشرقون ومن تأثر بهم، حيث يقولون أن سبب تأخر الشرق الإسلامى مادياً علمياً يرجع إلى تمسكهم بالدين الإسلامى وتعاليمه، ولا مناص للشعوب الإسلامية إذا أرادوا أن يتغلبوا

على هذا التخلف الحضارى إلا أن يتخلصوا من تعاليم دينهم أولاً، وأن ينحوا الإسلام بعيداً عن شئون حياتهم اليومية، ليكون قضية شخصية يمارس الإنسان طقوسه وشعائره إذا أراد ذلك فى بيته أو فى المسجد وكفى، ويقارن هؤلاء بين تقدم الغرب وتأخر الشرق، ويطرحون على الشباب هذه المقارنة الظالمة ليبيّنوا فيها إن تقدم الغرب كان سببه هو التخلص من الدين عموماً، والتمسك بمنطق العلم فقط، وليس أمام الشرق إلا أن يسلك مسلك الغرب فى ذلك لأنه النموذج الأفضل للتقدم ومواكبة علوم العصر وهذه القضية من أخطر القضايا المطروحة الآن فى الساحة الثقافية وهى بؤرة الحوار أو الصراع بين العلمانيين والإسلاميين.

ولقد جند المستشرقون كثيراً من حملة الأقلام وسخروهم للترويج لهذه الأكذوبة فى البلاد الإسلامية، وأصبح يتولى عبء الدفاع عن هذه القضية -للأسف الشديد- بعض المحترفين للكتابة من المسلمين نيابة عن الاستعمار، فعل ذلك بعض حملة الأقلام فى مصر، والشام، والعراق، وتونس، والجزائر، والمغرب، كما شغلت الدعوة لهذه القضية كثيراً من وقت أجهزة الإعلام صحافة وإذاعة وتلفازاً، وعقدت من أجلها الندوات، وأقيمت المؤتمرات والمناظرات، ووصل الأمر بها أن تسللت إلى بعض قاعات الدرس الجامعى تحت ستار التنوير، والمعاصرة، واستغل بعضهم الوضع المتردى للمسلمين ليفهم الشباب أن سبب هزائمهم المتكررة، هو التمسك بالإسلام.

وتتاسى هؤلاء أن للنصر أسبابه وللنهضة أسبابها، وأن للهزيمة أسبابها، وللتأخر أسبابه كذلك، وأن إقحام الدين فى ذلك تضليل وافتراء، ولا يحتاج الأمر فى توضيح هذه الأسباب إلى عناء كبير.

لماذا لم يقارنوا بين نظم الحكم فى الغرب ونظيرها فى الشرق؟!!

لماذا لم يقارنوا بين ما يتمتع به الغرب من حرية وديمقراطية، وما هو واقع فى الشرق من استبداد فى الحكم لا نظير له فى أى بلد فى العالم؟!!

إن أسباب التقدم تكمن فى احترام هذه الأسباب وضرورة الأخذ بها واحترام العلماء الذين أفتوا أعمارهم فى الكشف عنها والتنبه إليها، ولقد نبه ابن خلدون إلى ذلك قديماً كما نبه إليه المفكرون حديثاً وأن السنن الكونية لا تتخلف آثارها إذا ما وجدت الأسباب سواء تعلق ذلك بالأفراد أم تعلق بالجماعات والأمم، فللنصر أسبابه وللهزائم أسبابها؛ كما أن لقيام الحضارات أسبابها ولا نهيار الحضارات أسبابها، وتلك سنن الله فى كونه لافرق فيها بين أمة مسلمة وأخرى كافرة.

والقضية كلها تتمثل عندى فى أسئلة محددة :

- ١- هل حقيقة أن أوربا قد نفضت يدها من قضايا الدين فلم تعبأ به؟
- ٢- وهل حقيقة أن رفضها للدين كان سبباً فى تقدمها؟

٣- وهل حقيقة أن سبب تأخر الشرق العربي يرجع إلى تمسكه بالإسلام وأخذه به؟

٤- قبل الإجابة على هذه الأسئلة أجد هناك سؤالاً لا بد من طرحه : هل الإسلام يتعارض مع لأخذ بأسباب التقدم العلمى والحضارى؟ وفى رأى أن وضع القضية كلها فى هذا الشكل يكون أكثر تحديداً وموضوعية بدلاً من التلاعب بالألفاظ بوضعها فى غير موضعها الحقيقى، وبهذا التحديد نستطيع أن نضع النقاط فوق الحروف.

ولعل الإجابة على السؤال الأخير تعطينا المفتاح الحقيقى للإجابة على الأسئلة السابقة، فإن الأخذ بالمفاهيم الدينية الصحيحة لا يتعارض مع الأخذ بأسباب التقدم، لأن العلاقة بينهما ليست علاقة تضاد أو تناقض حتى نزن أو نتوهم أن التمسك بالدين الصحيح سبب تأخر أهله، وإنما هى علاقة أشتمال وتداخل أو ما يسمى فى عرف المناطق بعلاقة العموم والخصوص المطلق، فكل ما هو دين صحيح لا بد وبالضرورة أن يكون فيه تقدم للبشرية وأمن وأمان وكلمة "صحيح" هنا مقصودة بذاتها، حتى لا يعد من الدين ما ليس منه، وحتى لا يرتكب باسم الدين ما لا يمت إليه بسبب، كما أن التقدم الذى ينشده الدين لأهله ليس هو تقدم الأشياء فى ذاتها فتكون الحضارة الناتجة عن هذا اللون من التقدم حضارة مادية أو هى حضارة شيئية لا تعنى بصانع الأشياء قدر عنايتها بالأشياء فى ذاتها، ذلك أن هذا

اللون من التحضر يوجه كل اهتمامه إلى الوسائل فيجعلها غايات في ذاتها ويهمل الغايات الحقيقية التي يجب أن يتوجه لخدمتها كما يتبع منها كل ألوان التقدم والتحضر.

والأديان كلها خلاف ذلك تماماً، فهي تجعل الإنسان غاية في ذاته لكل تقدم مقصود وما عدا الإنسان في هذا العالم يعتبر وسيلة له. ومن هنا نجد الأديان كلها قد وجهت عنايتها إلى الإنسان باعتباره غاية مقصودة، في الوقت نفسه لم تطلب من الإنسان أن يهمل الوسائل باعتبارها مرآة وجوده وعنوان تحضره، وهذا هو الفرق الدقيق بين موقف الأديان من معنى التحضر وموقف أولئك الرغضيين للدين بدعوى أنه يعوق التقدم، فإن أولئك يهتمون بتقدم الأشياء في ذاتها على حساب التقدم الإنساني، فإن تقدم الإنسان في ذاته شيء وتقدم الأشياء المحيطة به شيء آخر. وهم بذلك يهتمون بالوسائل على حساب الغاية، وهذا عكس الموقف الديني الذي يهتم بالغاية في ذاتها ولا يهمل الوسائل.

ولعل بوادر الافلاس لبعض الحضارات المادية قد بدت واضحة في معظم دول أوروبا، حيث ظهرت حركات التمرد التي تعبر عن روح الشباب الثائر على كل شيء أمامه لأنه لم يجد فيه ما يبعث روح الأمن والأمان للذين هما غايه الإنسان وأمله في حياته.

وأوروبا لم تتقدم لأنها أهملت الدين أو نفضت يدها منه كما يزعم هؤلاء، بل تقدمت أوروبا لأنها أخذت بأسباب التقدم وملك

ناصيته، كما أن الشرق لم يتخلف بسبب تمسكه بالدين أو أخذه بمفاهيمه، وإنما يرجع تأخر الشرق لأنه أهمل الأخذ بأسباب التقدم ولم يسع إليها، وهذا قانون إلهي عام في جميع الأمم ينطبق على الأمة الإسلامية كما ينطبق على الأمم الكافرة، فمن يأخذ بالأسباب يصل ضرورة إلى النتائج إذا توافرت العوامل المساعدة، ومن يهمل الأسباب لا يبنى نفسه بالوصول إلى نتائج، فالدين مفترى عليه في هذه المقارنة، وينبغي أن نتلمس أسباب تقدم الغرب وتأخر الشرق بعيداً كل البعد عن هذه الأكذوبة المقصودة.

أوروبا والمسيحية :

وإذا ألقينا نظرة سريعة على حقيقة موقف أوروبا من الدين، فإننا نجد ما يدعو إلى الدهشة والعجب، لأن موقف حكومات أوروبا يختلف تماماً عما يشاع عنها في منطقة الشرق والعالم الإسلامي بصفة خاصة، ولم نجد في العالم الإسلامي كله - وهو الهدف المقصود من هذه الحملة - حكومة تخطط وتعد البرامج لتنفيذ خططها لنشر دينها وحمايته مثلما عملت حكومات أخرى في أوروبا.

وسوف أضع أمام القارئ بعض المواقف لبعض دول أوروبا من هذه القضية ليعرف مدى ما وصل إليه دعاة هذه الأكذوبة من تضليل وتزييف في دعوهم أن أوروبا نفضت يدها من الأديان عموماً.

أولاً : لا يشك معاصر في تقدم الشعب الإنجليزي ولا في تحضره، ورغم ذلك فإنه على المستوى الحكومي من أكثر الشعوب



الأوربية حفاظاً على دينه ومعتقداته، ولقد أثير في الثلاثينات من هذا القرن خلاف كبير حول قضية استحالة الخبز والخمر إلى جسد المسيح وروحه، وهذه مسألة معروفة في الدين المسيحي، فاليمينيون يرون أنه بمجرد تقديس الكاهن على المذبح ينقلب الخبز إلى جسد المسيح وينقلب الخمر إلى دمه بناء على أن المسيح قد قال في العشاء الأخير لحوارييه أن هذا الخبز جسدي وأن هذه الخمر دمي وقدم لهم الخبز والخمر معاً. فالكاثوليك والمحافظون يقولون أنه كلما قدس الكاهن على الخبز والخمر ودعا بالدعاء الذي قاله المسيح ينقلب الخبز إلى جسده والخمر إلى دمه، وأما الوسط واليساريون فيرون أن هذه الاستحالة غير معقولة لأنها مخالفة للعلم، والخبز لا يكون جسداً للمسيح ولا الخمر دماً له بالمعنى الحقيقي، وأنه يقدر كل يوم ألوف الكهنة، ولا نرى هذا التحول حقيقة، ولا يكون كلام المسيح في ذلك إلا رمزاً بحيث إذا قدس الكاهن يتذكر الناس جسد المسيح ودمه، واحتدم الخلاف بين اليسار واليمين حول هذه المشكلة في إنجلترا واستدل اليسار بما في كتاب الصلاة الذي يمثل عقيدة الكنيسة الانكليكانية، وفي هذا الكتاب ما يدل على أن كلام المسيح ليس إلا رمزاً فقط وليس حقيقة، واعترض اليمين على النص المقدس وطلبوا تعديله أو حذفه من كتاب الصلاة، ولا يجوز تعديل أو حذف أي نص من كتاب الصلاة إلا بعد الرجوع إلى مجلس العموم البريطاني، ومن هنا دخلت هذه المشكلة إلى مجلس العموم ومجلس

اللوردات، وشكلت الحكومة البريطانية لذلك مجلساً مؤلفاً من كبار المطارنة لحسم هذه المشكلة، ولكن هذا المجلس المؤلف قد انقسم على نفسه ولم يتفق على رأى موحد إلا بعد نقاش طويل حيث استقر رأيهم أخيراً على أن هذه الاستحالة حقيقية وطلب المجلس تعديل كتاب الصلاة فيما يتعلق بهذه النقطة، وعند ذلك عرضت الحكومة هذه القضية على مجلس اللوردات وبعد مناقشات عنيفة قرر المجلس تنفيذ قرار الأباطرة الذى كان يرأسه رئيس أساقفة كنتربرى أكبر أساقفة إنجلترا، ولما كان لابد لتعديل كتاب الصلاة من موافقة مجلس العموم دخلت إليه القضية مرة أخرى، ووقف وزير الداخلية البريطانى، معترضاً على قرار التعديل فى الكتاب المقدس، فكتاب الصلاة هو دستور كنيسة إنجلترا ولا يمكن تعديل شىء منه إلا بعد رأى الأمة بأسرها، وعند التصويت على هذه القضية كانت الأكثرية رافضة لقرار التعديل فى كتاب الصلاة.

فهذه مسألة دينية صرفة كانت محور هذه المناقشات الطويلة فى مجلس الشيوخ والنواب فى أعظم دول وأعلاها كعبة فى المدنية والتحضر، فهل كانت إنجلترا رافضة للدين حين شغلت نفسها بهذه المشكلة؟

ثانياً : لقد وضعت بلجيكا فى برنامج حكومتها الرسمى العمل على تنصير زنوج مستعمراتها فى الكونغو، وتم لها ما أرادت فأصبح أكثر من نصف سكان الكونغو يدينون بالمسيحية بعد

أن كانوا يعيشون حياة البداوة وذلك بجهد المبشرين بالمسيحية الذين أوفدتهم بليجكا لتنفيذ برنامجها هناك.

ثالثاً : نجد إيطاليا بعد أن غلب عليها حكم الفاشية أعادت إلى المدارس الحكومية التعليم الدينى الخاص الكاثوليكي وأقامت الصلبان فى المدارس، وعدلت قوانين البلاد تعديلاً موافقاً لمبادئ الكنيسة، وأعلنت أنها دولة مسيحية كاثوليكية وأرسلت القساوسة والمبشرين إلى مستعمراتها، وزادت على غيرها من دول الاستعمار المسيحى أنها أخذت أطفال المسلمين قهراً من حجور أمهاتهم فى ليبيا لكى تتصرهم على الكاثوليكية فى إيطاليا نفسها، ولم تعبأ بما فى ذلك من الاعتداء على أقدس حرية بشرية وهى حرية العقيدة وهذا شئ قد سجله التاريخ وهو خير شاهد على ذلك.

وجميع الدول البروتستانية فى أوروبا تعلن كلها أنها دول مسيحية، وأن ثقافتها انجيلية، وكثيراً ما أعلنت هذه الدول فى برامج حكوماتها أمام المجالس النيابية أنها ملتزمة بالثقافة الانجيلية وتعاليمها، ولا يخفى على من يقرأ تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب أن وزير معارف هولندا افتتح مؤتمر المستشرقين فى ليدن سنة ١٩٣١ بخطاب صرح فيه بأن هولندا لم تذهب إلى الشرق لأجل التجارة، وإنما لنشر الدين المسيحى" كما صرح "شترزمان" وزير خارجية ألمانيا فى كثير من خطبه أمام "الريخستاج" أن ثقافة ألمانيا

قائمة على الدين المسيحي، وفي فبراير سنة ١٩٣٣ قدم هتلر رئيس الحزب القومي الإشتراكي الألماني - عندما تولى رئاسة الوزارة - برنامجاً لوزارته صدق عليه جميع وزراء ألمانيا المشتركين في الوزارة، وبدأه هتلر بقوله "أن أول واجب ستقوم به الحكومة القومية الألمانية هو العمل لأجل الوحدة الروحية وإحياء العقيدة النصرانية في الأمة والتقاليد الجيدة الماضية" وهناك كتاب يسمى "الأديان في ألمانيا" ينبغي أن يقرأه أولئك الذين يتزعمون عن جهل - دعوى فصل الدين عن الدولة ليعلموا ما للدين من قوة في ألمانيا وكيف يقترن التعليم الديني بالتعليم المدني في مدارسها.

والمصلح المسيحي كلفين كان أساس برنامج الإصلاح هو "أن الدولة المسيحية رأسها هو الله" ولأجل أن يكون الإنسان تابعاً لهذه الدولة ينبغي له عدم الحيدة عن خطة الإنجيل، والمواطنة على إقامة الشعائر المسيحية ويتناول القربان أربع مرات في العام، ذلك أن الاشتراك في المائدة الإلهية هو عبادة الله رأس الدولة المسيحية، واليسوع المسيح رأس الكنيسة، فهاتان السلطانان الدنيوية والروحية باتحادهما معاً من شأنهما تنفيذ إرادة البارئ رأس الدولة فالسلطة السياسية بيدها السيف ولها حق القصاص إن لزم، كما أن السلطة الروحية لها حق الوعظ والتحليل والتحرير، وكلا نوعي الأحكام الزمنية والروحية يجب أن يبني على الكتاب المقدس، والملك الذي لا ينشر مجد الله فليس بالذي يقيم مملكة وإنما يقيم لصووية، وعلى

الحاكم أن يقبل مراقبة رجال الدين ويوطد بالتعاون معهم نظام دولته لا النظام المدني فقط، بل الديني أيضا".

وفرنسا قد اتفقت مع الفاتيكان على تحديد نوع العلاقة بين الدولة والكنيسة، وبمقتضى هذه العلاقة أعلنت فرنسا أنها حامية المسيحية في الشرق ولا سيما المذهب الكاثوليكي، ومن يقرأ تاريخ الاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا يعلم حقيقة موقف فرنسا من الدين المسيحي وجهودها الدائبة لنشره، ولا يخفى على أحد أيضا ما فعله الكردينال "لافيجرى والآباء اليسوعيون في الجزائر وتونس والمغرب وبلاد النيجر، فلقد تحولت مساجد كثيرة إلى كنائس علقت فيها الصلبان وتحول الكثير من البربر إلى كاثوليك بفعل الآباء وتعمدت فرنسا إلغاء الشريعة الإسلامية في الجزائر على يد المسيو (لوسيان سان) الذي دعا إلى عقد مؤتمر ديني كبير للكاثوليك نتج عنه حظر التجول للفقهاء المسلمين في البلاد، ومنع حفظة القرآن الكريم ومشايخ الطرق الصوفية، كما منع زعماء البربر من إرسال أبنائهم إلى العواصم لحفظ القرآن أو تعلم العقيدة الإسلامية وذاكرة التاريخ لا تنسى شيئا من ذلك. ولا أريد أن أستطرد في ذكر العديد من النماذج الأوروبية التي يحلو للبعض أن يقارن الشرق بها، ولكن أصبح من المؤكد الآن أن الذي دعت إليه فرنسا في الجزائر والمغرب هو بعينه ما يدعو إليه هؤلاء العلمانيون من أبطال العمل بالقانون الإسلامي وفصل أمور السياسة عن أمور الدين. وما أردت بذكر هذه الأمثلة إلا أن أضع أمام حكومات العالم الإسلامي وأمام القارئ حقيقة الموقف

ليعلم الكل كم يخدمه هؤلاء المضللون في زعمهم بأن أوروبا قد
نفضت يدها من قضايا الدين وأنها لا تعنى بالمسيحية في شيء وأن
النشاط الديني لا يبارح الكنيسة.

وأول من ندى بهذه الضلالة وروج لها في الشرق هو
مصطفى كمال أتاتورك رئيس تركيا، وكان وراء ذلك جهد كبير
وجهاد مستمر من الاستعمار الذي غذى هذه الأكاذيب وعمل على
شيوعتها في هذه المنطقة لكي يمكن لنفسه من خيراتها، وكانت الخلافة
العثمانية تمثل في نظر الاستعمار حجر عثرة يجب التخلص منها،
وذلك لا يمكن إلا بالتخلص من العقيدة الإسلامية باقتلاعها من نفوس
أصحابها بوسيلة أو بأخرى وفي سبيل ذلك أشاعوا كذباً وبهتاناً أن
الدين ضد المدنية والتحضر، وأن تأخر الشرق يرجع إلى تمسكه
بالدين .. و.. هذه الأكاذيب والأضاليل التي استأجروا للترويج لها
أقلاماً ورجالاً مازلنا نسمع صوتهم إلى اليوم، وإذا كان أتاتورك قد
سلخ تركيا عن العقيدة الإسلامية بقانون وبرنامج وضعت خطواته في
أندية أوروبا، فإن الشعب التركي لم لبث أن عاد وسريعاً إلى العمل
على بناء ما تهدم وتعمير ما خرب، وأصبح يجتذب إليه أنظار العالم
الإسلامي كله فيعقد المؤتمرات الدولية باسم الإسلام ويكون الأحزاب
الإسلامية التي وجدت لها مكاناً في السلطة السياسية، وأصبح ما فعله
أتاتورك بتركيا عملاً سجله التاريخ في كتبه ولم يؤثر في عقيدة
المسلم التركي في واقع الأمر، والقضية كلها أصبحت قضية تاريخية
ولا واقع لها.

سياسة التنصير
في العالم الإسلامي

تبشير أم تنصير

من الأفضل أن نسمى الأشياء بأسمائها الصحيحة، ولذلك فإننا نرى أن استعمال كلمة التنصير هي الأكثر دلالة على المطلوب من كلمة التبشير التي استعمالها بعض الكتاب للتعبير بها عن ذلك الجهد الذي يبذله المتخصصون من النصارى فى بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين وغيرهم بهدف تنصيرهم وتحويلهم من الإسلام إلى النصرانية واتباع تعاليم الإنجيل بدلاً من القرآن والولاء للكنيسة بدلاً من المسجد.

وقد يكون مفيداً للدارسين لهذه القضية أن يعلموا أن سياسة التنصير والعمل على بث تعاليم الإنجيل بين المسلمين ليست جديدة وإنما ليست وليدة هذا العصر، بل هي قديمة قدم الإسلام نفسه، ويمتد تاريخها إلى عصر النبوة ثم عصر الخلفاء الراشدين وبنى أمية ولا زالت مستمرة إلى يومنا هذا.

وأقدم وثيقة سجلت لنا تاريخ الحوار المسيحي الإسلامى هو القرآن الكريم وما جاء فيه من آيات سجلت لنا ماكان يدور بين الرسول وأهل الكتاب فى المدينة المنورة، وهذا الحوار كان يشتد أحياناً ليأخذ شكل الصراع الذى يذهب إلى مستوى الكيد والتدبير لقتل الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يهدأ فى بعض الأحيان فيأخذ شكل الحوار العقلانى، ولقد سجلت لنا سورتان كريمتان من سور القرآن الكريم ما كان يجرى من حوار بين الرسول وأهل الكتاب وهما (سورة آل عمران وسورة المائدة) والذى يتدبر آيات الحوار

الواردة في هاتين السورتين يقف على حقيقة هذا الصراع وحقيقة القضايا العقدية التي كانت تمثل موضوع هذا الحوار، وكيف فضح القرآن سرائر النصارى حين بدلوا وحرفوا ما أنزل الله على عيسى النبي وبين أنهم يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله وما هو من عند الله، واستمرت موضوعات هذه القضية موضوع الحوار الديني خلال عصور الإسلام، المتوالية تصدى لها علماء الإسلام عبر هذه القرون العديدة فوضع الجاحظ رسالته في الرد على النصارى، وكتب القاضي عبد الجبار كتابه في دلائل النبوة ونبه كل منهما على أساليب النصارى ومنهجهم في بث دعاوى الإنجيلية بين المسلمين.

كما تصدى لنفس القضية ابن حزم في كتابه العظيم "الفصل" والشهرستاني في كتابه "الملل والنحل" وعلى بن ربن الطبري في رسالته الرد على النصارى وابن تيمية في الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، وابن القيم في كتابه "هداية الحيارى في الرد على النصارى" وكذلك القرافي في كتبه الأجوبة الفاخرة في الرد على الأسئلة الفاجرة والقرطبي في كتابه الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام.. وكثير من الرسائل التي لا تكاد تحصى في هذا الغرض.

وفي العصور المتأخرة، كتب - رحمة الله بن خليل الرحمن العثماني الكيرانوى - كتابه "إظهار الحق" الذي يعتبر من أهم الكتب الحديثة التي عرضت لهذه القضية بأسلوب رصين ومنهج علمي رائع أفاد من كتب السابقين. وأخذت هذه القضية تحتل مكاناً بارزاً في

اهتمامات المفكرين المعاصرين وفى الأقسام الأكاديمية للفلسفة الإسلامية والعقيدة فى الجامعات العربية والإسلامية، ولعلها تمثل الآن أهم قضايا الحوار القائم بين المسيحية والإسلام فى المؤتمرات المتعددة التى احتلت بؤرة الصراع القائم بين أهل الديانتين عبر التاريخ وتحولت لغة الصراع إلى لون جديد من الحوار كمظهر جديد من مظاهر العلاقة بينهما.

وسوف نجعل هذه الدراسة تركز فى مقدماتها ونتائجها على نصوص المبشرين أو القائمين على سياسة التنصير أنفسهم وكذلك على التوصيات التى يوصون بها فى مؤتمراتهم المتعددة ليكون كلامهم شاهداً لنا بما نريده من دراسة هذه القضية من حيث الغاية والهدف من جانب وليكون فى نفس الوقت رداً علمياً على الذين يرددون كلامهم ويتشيعون لمنهجهم تحت ستار المدنية والحضارة وما إلى ذلك من مسمياتهم الكثيرة التى يتسترون خلفها لبث أفكارهم بين المسلمين من جانب آخر.

ولقد نشطت المؤسسات التنصيرية فى العالم الإسلامى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين مما لفت أنظار المفكرين المسلمين أن يتنبهوا لخطورة هذه القضية وسوء عاقبتها مما دعا البعض إلى رصد هذه المؤسسات وتتبع تاريخ هذا النشاط التنصيرى فى القرنين الأخيرين.

وتكاد تتفق معظم المؤلفات الحديثة على أن أول من مارس هذه المهمة فى العالم الإسلامى الحديث هو "ريمول لول ١٢٩٩-١٣٠٠"

المفكر الأسباني الذي استطاع أن يحصل على إذن الملك يعقوب صاحب أرغونة ليقوم بمهمة التبشير في مساجد برشلونة بين صفوف المسلمين محتمياً بالسلطة المسيحية في أسبانيا^(١). وذلك بعد أن فشلت الحروب الصليبية في تحقيق أحلام الغرب وعودة بيت المقدس إلى السلطة المسية وانتزاعه من أيدي المسلمين.

وكان قبل ذلك قد تأسس في سوريا وبلاد الشام جماعة (الإخوة الكرملية) أسسها أحد الصليبيين ٥٥٢هـ سنة ١١٥٧م وأطلق عليها اسم جبل الكرمل.

وفي أوائل القرن الثالث عشر تأسست مدرسة الآباء الفرنسيسكان والدومنيكان، وأنشأت كل منهما لنفسها فروعها المختلفة في أنحاء سوريا وبيروت.

وفي أعقاب الحروب الصليبية كتب أسقف "دومينكاني" وهو "وليم الطرابلسي" رسالة بشئون المسلمين يوصى فيها باستخدام المرسلين (يعنى المنصرين) بدلاً من الجنود لاستعادة البلاد المقدسة^(٢).

ولقد أشار فيليب حتى إلى هذه الوثيقة الخطيرة في كتابه عن تاريخ سوريا وفلسطين، وأوضح القول في العلاقة المتبادلة بين

(١) راجع التبشير في منطقة الخليج، ص ٢٠١/٢٠٣، الحنجي.

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان ولسطين ٢/٢٦٣، دار الثقافة بيروت، نقلًا عن أ.د. عبدالعظيم الديب، التعبئة الثقافية، بحث نشر في ندوة الثقافة العربية، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣م.

الاستشراق والتنصير وأن هدف الفريقين واحد، وإن اختلفت الوسائل، فالمبشرون يستفيدون من دراسات المستشرقين لخصائص البلاد وأحوالهم وعاداتها وإمكاناتها للتقرب إلى أهلها بأيسر السبل، والتعاون قائم بين الفريقين لاستقطاب أهل الرأى فى المنطقة للسيطرة عليها بكل الوسائل المتاحة.

ولقد ركزت حملات التنصير فى العصر الحديث على أطراف العالم الإسلامى والمناطق النائية فى شرق وجنوب شرق آسيا وبصفة خاصة فى أندونيسيا ووسط أفريقيا والمناطق الاستوائية، مستعينين فى ذلك بالخدمات الاجتماعية التى يقدمونها لأهالى هذه المناطق كالمعونات الاقتصادية والخدمات الطبية ودور الأيتام وكبار السن وتأسيس المدارس بمراحلها المختلفة، ومما يلفت النظر حقاً أنه رغم كل هذه الجهود المضنية فإن النتائج التى حصلوا عليها كانت مخيبة لآمالهم مما دعاهم إلى معاودة النظر فى الأسلوب والوسيلة مرات ومرات، ولعل أبرز ما تم الاتفاق عليه فى مؤتمر كلورادو سنة ١٩٧٨م هو محاولة خلق البيئة الملائمة للمسلم الذى يراد تنصير، فبدلاً من التركيز على تنصير الفرد أخذوا يركزون على تنصير البيئة والجماعة كوحدة متكاملة يراد تنصيرها حتى لا يشعر الفرد بالغربة أو العزلة إذا ترك دينه منفرداً. أما إذا كانت الجماعة كلها محور العمل التنصيرى فإن الفرد لا يحس فيها بالغربة أو العزلة، لانه حينئذ سيكون فرداً فى جماعة متكاملة. وهذا ما سعى المنصرون لتحقيقه فى كثير من المناطق النائية الآن. ولعل من أبرزها ما يجرى فى أبرزها ما يجرى فى أندونيسيا وأفريقيا.



بين الاستشراق والتنصير :

ومن الملاحظ أن أهداف سياسة التنصير قد تلتقى مع أهداف حركة الاستشراق في كثير من الأمور، خاصة ما يتصل منها بالأهداف الدينية والثقافية وإجماع الطرفين (المستشرقون والمنصرون) على القول بمركزية الحضارة الإنسانية وارتباطها بأوروبا وشعوبها، وهذا ما تجده واضحاً في كتابات المستشرقين والمنصرين ومن دار في فلكهم من الكتاب العرب الذين يقومون بدورهم في تحقيق أهداف المستشرقين في القول بأوربة الفكر الإنساني قاطبة" والقول بضرورة الأخذ بالنموذج الأوروبي واقتفاء أثره إذا أراد المسلمون أن يعيشوا عصرهم وحضارتهم^(٣).

وقد يكون مفيداً للقارئ أن ننبه هنا إلى أن هاتين الظاهرتين وجهان لعملة واحدة، هي موقف الغرب من الإسلام والمسلمين، وماذا يريد الغرب من الشرق الإسلامي لذلك لا غرابة أن نجد بينهما وحدة في الهدف أحياناً ووحدة في الوسائل أحياناً أخرى، فقد يكون بعض المستشرقون مشتغلاً بعملية التنصير، وقد يكون المنصر مستشرقاً وهذا واقع معروف في عصرنا وفي كثير من بلادنا. وهذا يقسر لنا ما قد يجده الدارس أحياناً من تداخل أحياناً في قراءة الأسباب والأهداف لكل من هاتين الظاهرتين.

(٣) من هذه النماذج على سبيل المثال : عبدالله العروسي ومحمد آركون بالمغرب.

ولكن ينبغي أن ننبه هنا إلى أهم ما بينهما من فروق فى الوسائل والمناهج :

١- يركز الاستشراق فى وسائله على الجانب العلمى، كالبحت والكتاب والمقال والندوة والمؤتمر والمحاضرة، فنشاطه علمى وبحثى، مجاله العلوم الإسلامى بفروعها المختلفة، فقد تجد بينهم المشتغل بالنحو أو التاريخ أو التفسير أو علوم الحديث والفلسفة والتصوف.. الخ.. أما التبشير فغالباً ما يركز على الجانب الاجتماعى كوسيلة مؤثرة فى تحقيق أهدافه : مثل بناء المستشفيات والملاجىء والنوادم والمؤسسات التربوية والتعليمية.

٢- يركز المستشرقون فى نشاطه على مخاطبة المثقف بعد اكتشاف ميوله والتعرف على مزاجه النفسى، وكذلك المشتغلين بالسياسة ووسيلتهم فى ذلك الكتاب والمقال والندوة والصدقات الشخصية مع كبار المسئولين عن القرار السياسى والثقافى، والعائدين من البعثات التعليمية بأوروبا وغالباً ما توتى هذه الصدقات ثمارها فى تنفيذ أهداف المستشرقين ولعل النظرة السريعة إلى خريطة توزيع الوظائف المؤثرة ثقافياً فى وطننا العربى تؤكد لنا صدق هذه القضية، فمعظم العائدين من البعثات خاصة من فرنسا يتبوأون مراكز القيادة الثقافية فى بلادهم ومن موقعهم الوظيفى يملكون اتخاذ القرار وتنفيذه.

أما المبشرون فيركزون في خطابهم على الطبقات الدنيا والفقيرة في المجتمع، الطبقات التي لاحظ لها من الثقافة أو التعليم لتسد رمقها وتروى ظمأها، والطريق إلى مخاطبة الفقير والجائع هو لقمة العيش وحفنة المال.

٣- لا يلجأ المبشر إلى الطعن في الإسلام بطريق مباشر، وإنما يبدأ حواراً مع المسلم بالحديث عن الجوانب الاجتماعية التي تشغله والتي هي نقطة الضعف في حياته ويعانى منها، عكس المستشرق فإنه يلجأ في مؤلفاته إلى النيل من الإسلام ومن الرسول بشكل مباشر تحت ستار البحث العلمي والموضوعية في البحث ويعلن رأيه بشكل مباشر وصريح فيطعن في نبوة الرسول والقرآن ويثير المشكلات التي مازالت تؤرق المفكر المسلم إلى الآن.

ويمكن أن نعرف التنصير من أقوال أصحابه القائمين به بأنه: منهج يسلكه المختصون لتنصير العالم وتقديم تعاليم الإنجيل إلى غير المسيحي بوسائل مختلفة ولقد أفصح الدكتور (هاريسون) عن هذا الهدف بوضوح في تحديده مهمة الإرسالية العربية الأمريكية بدول الخليج في قوله: "إننا نريدهم أن يصبحوا مسيحيين"^(٤) مستنداً على ذلك بما جاء في الإنجيل "فلتذهب إليهم وليكن لك أتباع بين جميع الأمم"^(٥)، ويجب أن يعم الإنجيل كل الأمم.

(٤) التبشير والاستشراق : مستشار عزت الطهطاوى، ص ١٥٨-١٥٩.

(٥) Dang.13 نقلاً عن التبشير والاستعمار : فروخ.

ومحاولة تحقيق هذا الغرض هو ما يطلق عليه لفظ التبشير،
الذى يعنى عند النصارى "العيش والعمل والحديث من أجل المسيح".
ومهمة التصير بين المسيحيين ضرورية، ولا بد أن يتعاون
للنهوض بها الأفراد والمؤسسات، وبلغ اهتمامهم بها حداً كبيراً جعل
بعضهم يعلن صراحة عن طبيعة المبشرين بقوله "لقد أرسلناه لا
للوغظ الاجتماعى، ولكن للخلاص، ولا للحديث عن الاقتصاد بل
للتبشير، ولا للتقدم بل للنصح، لا للنظام الاجتماعى الجديد بل للمولد
الجديد، لا للثورة بل للإنبعاث الروحى.. لا للتغنى بالديمقراطية بل
للإنجيل، لا للحضارة بل للمسيح، إننا سفراء ولسنا سياسيين".

ويتفق المسيحيون على أن التبشير ركن أساسى من أركان
الكنيسة الحديثة، وله النصيب الأكبر من الميزانية السنوية فى أموال
الكنيسة.

أهداف التبشير ومناهج المبشرين :

من الممكن أن تترك هذه النقطة دون إشارة إليها لولا أن
بعض المشتغلين بالكتابة يحاول أن يحمل أعمال المبشرين فى العالم
العربى على أنها أمور اجتماعية، الغرض منها المساعدة المالية
والاجتماعية للفقراء والمرضى واليتامى، ويدعى أن هذه أعمال
إنسانية ولا ينبغى التشهير بها أو حملها على غير مراد أصحابها،
وهذا ما دعانى إلى التعرض لهذه النقطة لنبين أغراض المبشرين من
كتاباتهم هم ومن على أسننتهم دون تدخل منها لل تفسير أو التأويل.

يقول الدكتور (إرهاس) طبيب الإرسالية التبشيرية في طرابلس: فإنه يجب على طبيب الإرسالية التبشيرية ألا ينسى أبداً لحظة واحدة أنه مبشر قبل كل شيء، ثم هو طبيب بعد ذلك :

ولقد خطب القسيس "هاريك" في جموع المبشرين مبيناً لهم كيفية التعامل مع المسلمين قائلاً : إن ترجمة الإنجيل وكتب التبشير إلى اللغات الإسلامية أكثر فائدة وأتم نفعاً، لأنه بمجرد شراء المسلمين لكتب المبشرين ومطالعتهم لها تتبدد أوهامهم القديمة عن المسيحية، وأما الجدل والمناظرة فيبعدان المحبة التي لها وقع كبير على قلوب الغير وتأثير مضاد على نشر النصرانية، فالمحبة والمجاملة هما آلة المبشر إن طريق الاعتقاد غايته دائماً القلب، ويجب على المبشر أن يتحلى دائماً بمبدأ المسيحية قبل أن يتغنى بالأمر النظرية، كما يظهر للمسلم أن النصرانية ليست عقيدة دينية ولا دستوراً سياسياً بل هي الحياة كلها.. إنها تحب العدل والطهر، وتمقت الظلم والباطل، ونفتح للمسلم مدارسنا ونتلقاه في مستشفياتنا، ونفرض عليه محاسن لغتنا، ثم نقف أمامه منتظرين النتيجة بصبر ونتعلق بأهداف الأمل. إذ المسلم هو الذى امتاز بين الشعوب الشرقية الاستقامة والشعور بالمحبة ومعرفة الجميل، وبهذه الطريقة فقط يمكن للمبشر أن يدخل إلى قلوب المسلمين^(٦).

وسبق أن قلنا إن أهداف الاستشراق قد تلتقى مع أهداف التبشير فى كثير منها لكن ذلك لا يعفينا من التنبيه إلى أهم أهداف التبشير فى العالم الإسلامى عموماً وفى منطقة الخليج بصفة خاصة.

(٦) الخالدى : ص ١٠٤-١٠٦.

١- تحويل أهل الجزيرة العربية عن الإسلام إلى المسيحية، ويتضح هذا الهدف من برنامج عمل الإرسالية الأمريكية التي تأسست سنة ١٨٨٩م فقد جاء فيه ما يلي : "نحن الموقعين أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تبشيري رائد في البلاد الناطقة باللغة العربية وبخاصة من أجل المسلمين والعبيد مقرين بالحقائق التالية. إن الحاجة بالغة لهذا العمل التبشيري وضرورة تشجيعه في العصر الحالى.. ولذلك فقد اقترحت اللجنة المؤسسة لها، ضرورة البدء السريع فى هذا العمل، وأن يكون ميدانها الجزيرة العربية وأعلى النيل.

٢- ومما يقوى الهدف السابق، ما يدعيه "زويمر" أحد مؤسسى الإرسالية السابقة من وجود حق تاريخى للنصرانية فى الجزيرة العربية، وأن إعادتها إلى النصرانية كسابق عهدها أمر غير مستحيل، وقد أكد ذلك "زويمر" فى قوله : "إن للمسيح حقاً فى استرجاع الجزيرة العربية، وقد أكدت الدلائل التى جمعت لدينا فى الخمسين سنة الأخير، على أن المسيحية كانت منتشرة فى البلاد فى سابق عهدها، وهناك دلائل أثرية واضحة على وجود الكنيسة المسيحية هنا، ولهذا فإن واجبنا أن نعيد هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية^(٧). وكان لسقوط الأندلس فى أيدي الصليبيين وانتهاء عهد المسلمين بها أثر فى تفكير "زويمر" فى الدعوة إلى استرجاع هذه المنطقة إلى أحضان المسيحية.

(٧) التبشير فى منطقة الخليج، عبدالمك التميمي، ص ٢٤٦.

٣- الالتفاف حول المقدسات الإسلامية في مكة والمدينة، وهذا الهدف قد أعلنه كثير من المبشرين في مؤلفاتهم، فلقد أعلن "هانوتو" أن هذه الرموز المقدسة هي رموز وحدة المسلمين وسر قوتهم، وأن المسلمين حين يلتقون حولها في الكعبة أو في المدينة يجددون نشاطهم ويستعيدون قوتهم الروحية التي يستمدون منها معنى التحدى على مواجهة المشكلات.

ولم ينس رؤساء المؤسسات التبشيرية أن يعلنوا صراحة أهدافهم التبشيرية على مسامح الأفراد المسلمين الذين يتعاملون معهم في المؤسسات التعليمية كالمدارس والجامعات التي أنشأوها في البلاد الإسلامية لهذا الغرض، تحت ستار نشر التعليم الحديث بين أبناء الشرق. فلقد أقيمت الجامعة الأميركية في بيروت ١٨٦٥م، ليكون مديرها مبشراً وجميع المدرسين بها من المبشرين كذلك، وكان من مبادئ تولى التدريس بالجامعة أن يقسم المدرسون بها على أن يوجهوا جميع أعمالهم نحو هدف واحد هو التبشير، ولم يقبل منهم أن يكونوا نصارى فقط، بل يجب عليهم أن يقوموا بمهمة التبشير أيضاً، وكانت تحرص الجامعة أن تظهر أساتذتها بمظهر المبشرين وكانت تجبرهم الجامعة أن يحضروا مؤتمرات المبشرين، ولما أحست الجامعة بنوع من الحرج في مواجهة الدولة العثمانية في أوائل هذا القرن ألغت مبدأ القسم المطلوب من الأساتذة.

ولقد قرر مؤتمر القدس المنعقد ١٩٣٥ أن يستغل كل درس علمي في سبيل تأويل مسيحي لفروع العلوم، كالتاريخ وعلم

النبات.^(٨) وكان دخول الكنيسة عملاً إجبارياً على كل تلميذ بالجامعة، ولما احتج أولياء أمور الطلاب على ذلك اجتمع مجلس الجامعة وأصدر منشوراً بهذا الخصوص جاء في مادته الرابعة ما يلي :

إن هذه كلية مسيحية، أسست بأموال شعب مسيحي، هم اشتروا الأرض، وهم أقاموا الأبنية، وأنشأوا المستشفى وجهازه، ولا يمكن للمؤسسة أن تستمر إذا لم يساندها هؤلاء وكل هذا قد فعله ليوجدوا تعليماً يكون الإنجيل من مواده، فتعرض منافع الدين المسيحي على كل تلميذ، وهكذا نجد أنفسنا ملزمين أن نعرض الحقيقة المسيحية على كل تلميذ.. وأن كل طالب يدخل إلى مؤسستنا يجب أن يعرف مسبقاً ماذا يطلب منه، ثم أعلن مجلس الأمناء للكلية: أنها لم تؤسس للتعليم العلماني.. ولكن من أول غاياتها أن تعلن الحقائق الكبرى التي في التوراة وأن تكون مركزاً للنور المسيحي، وللتأثير المسيحي، وأن تخرج بذلك على الناس وأن توصيهم به.

وهذه المؤسسة التعليمية ببيروت قد تأسس لها نظائر في سائر البلاد الاسلامية والعربية على وجه الخصوص، فهناك الجامعة الأمريكية بمصر، وجامعة غوردون بالخرطوم، وكذلك في استامبول بتركيا، بالإضافة إلى المدارس اليسوعية التي لا حصر لها في البلاد العربية وقراها، ولا يخفى على من يراجع المناهج التعليمية في هذه المؤسسات أن التبشير هو مركز الدائرة في كل أنشطة هذه المؤسسات.

(٨) الخالدي، ص ١٠٤-١٦.

والدور التبشيري الذي قامت به الجامعة الأمريكية، في بيروت التي أسست سنة ١٨٦٥ قامت به جميع الكليات التبشيرية الأخرى التي أسست لنفس الغرض وفي شتى بقاع العالم الإسلامي ويستوى في ذلك الجامعة الأمريكية في وسط القاهرة، والجامعة الأمريكية في استامبول، والكلية الفرنسية في لاهور وهذه الجامعة الأخيرة قامت بدور خطير جداً في جنوب شرق آسيا.

وتحت ستار نشر التعليم والثقافة في بلدان العالم الثالث حول المبشرون دور التعليم بمراحل مختلفة وكذلك المؤسسات الثقافية المختلفة إلى حقول خصبة لزرع تعاليم الإنجيل ونشر تعاليم المسيحية بين أبناء المسلمين من سن الطفولة في دور الحضانة وانتهاء بالتعليم الجامعي حيث أسسوا مدارس ومعاهد تعليمية لكل هذه المستويات وزرعوها زرعاً في معظم البلاد الإسلامية.

وكذلك المؤسسات الثقافية والإعلامية كانت بمثابة منابر يعملون من خلالها على نشر تعاليمهم، ولم يجدوا غضاضة في الإفصاح عن ذلك صراحة حتى إن واحداً منهم يعلن صراحة "أن المبشرين استغلوا الصحافة المصرية بصفة خاصة للتعبير عن الآراء المسيحية أكثر منها في أي بلد آخر، حيث ظهرت مقالات كثيرة في الصحف المصرية إما مأجورة في أغلب الأحيان أو بلا أجر في أحوال نادرة."^(٩)

(٩) البهي ص ٤٢٩، الخالدي وفروخ ص ٢٠٧.

الوسائل والمؤسسات التبشيرية :

أ- الإرسالية الأمريكية فى دول الخليج :

هى إرسالية بروتستانتية ذات أهداف تبشيرية فى شبه الجزيرة العربية، قام بتأسيسها الدكتور لانسنج Lansing أستاذ اللغة العربية فى معهد اللاهوت فى نيوبرونسك New Brunswick الخاص بتدريب المبشرين التابع لكنيسة الإصلاح الدينى بأمرىكا. ولقد ساعد لانسنج فى تأسيس هذه الإرسالية ثلاثة من تلامذته وهم جيمس كانتين، وصموئيل زويمر، وفيليب فيلبس، وكان والد لانسنج يعمل مبشراً فى بلاد الشام وخاصة سوريا لمدة طويلة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد أطلق لانسنج ومساعدوه على هذه الإرسالية اسم الإرسالية العربية سنة ١٨٨٩م. استجابة لطلب رسمى مقدم إلى هيئة الإرساليات الأجنبية للسماح بالقيام بعمل تبشيرى فى البلاد الناطقة باللغة العربية، وبدأت هذه الإرسالية تباشر نشاطها فى الجزيرة العربية وخاصة فى المناطق المطلة على الخليج العربى، وكانت كنيسة الإصلاح الأمريكية بولاية نيوجرسى هى التى تتولى الإشراف والتمويل لهذه الإرسالية كما كانت تمدها بالمبشرين الجدد الذين أتموا تدريبهم بما وأصبحوا مؤهلين للقيام بالعمل التبشيرى، وكان من خطة هذه الإرسالية العمل على نشر الإنجيل المسيحى فى المكان الذى نشأ فيه الإسلام، ولقد أحست هذه الإرسالية بصعوبة المهمة المكلفة بها خاصة فى منطقة الجزيرة العربية مهد الإسلام التى يتمتع أهلها بالولاء الكامل والغيرة الشديدة على الإسلام، لذلك

فكروا فى وضع خطة مكتوبة يوافق عليها أعضاء الإرسالية لتكون هذه الخطة ورقة عمل لهم فى هذه المنطقة وفى غيرها. ومما جاء فى هذه الخطة.

نحن الموقعين أدناه قد عزمنا على القيام بنشاط تبشيري رائد فى البلاد الناطقة باللغة العربية وبصفة خاصة من أجل المسلمين والعبيد مقربين منذ البداية بالحقائق التالية :

١- الحاجة البالغة لهذا العمل التبشيري وضرورة تشجيعية فى العصر الحديث.

٢- عدم وجود مثل هذا العمل التبشيري تحت إشراف مجلس الإرساليات الأجنبية فى الوقت الحالى :

٣- عدم قيام أى مجهود يذكر حتى الآن فى المجالات آنفة الذكر ولتحقيق الأهداف المرجوة فإننا نتقدم من المجلس وبتأييده إلى الكنيسة عامة بالمقترحات التالية :

(١) الشروع بهذا العمل بأسرع وقت ممكن.

(٢) أن يكون ميدان العمل الجزيرة العربية أو أعلى النيل.

وجاء فى المادة الأولى من دستور هذه الإرسالية "سيكون اسم هذه المنظمة : الإرسالية العربية" وفى المادة الثانية : سيكون هدف هذه المنظمة القيام بالعمل التبشيري فى الجزيرة العربية أو البلاد الناطقة بالعربية.

البحرين مركزاً مستقلاً للنشاط التبشيري في المنطقة بعد أن كان تابعاً لمركزهم بالبصرة، وساعد على تكثيف النشاط التبشيري بها عوامل كثيرة أشار إليها المبشرون أنفسهم، ومن أهم هذه العوامل، وضع البحرين السياسى حيث كانت محمية بريطانية وهذا العامل وحده كان كافياً لتوفير قدر من الأمن والأمان للمبشرين في المنطقة. ثم ابتدأ نشاط هذه الإرسالية إلى جنوب الجزيرة العربية فأنشأت لها مركزاً في عمان ومسقط ومن عمان امتد نشاط الإرسالية إلى شرق أفريقيا ووسطها.

ج- وفي مطلع القرن العشرين أنشأ المبشرون مركزاً لهم في دولة الكويت حيث بدأوا في زيارتها سنة ١٩٠٠م للمرة الأولى وكانت زيارتهم الثانية لها سنة ١٩٠٣م حيث افتتحوا بها مكتبة لبيع الكتاب المقدس، ولكن رفض حاكم الكويت في وقتها وهو الشيخ مبارك أن تقوم هذه المكتبة بأى نشاط تبشيري في الكويت ثم أمر بإغلاقها.

ولكن أعين المبشرين لم تنصرف عن الكويت لما لها من أهمية كبيرة في نظر المبشرين، ولقد كتب "أرنولد ويلسون" عن أهمية الكويت بالنسبة للنشاط التبشيري فقال: "إن المزايا الاستراتيجية والتجارية لموقعها وقربها من مدخل دجلة والفرات وأن لها صلتها الوثيقة بمملكة ابن سعود في وسط الجزيرة العربية، وكونها تسمح بالعبور إليها بسهولة، كل هذه الأمور تجعل الكويت ذات أهمية

خاصة بالنسبة للمبشرين" (١٢). وظلت المحاولات قائمة بين الإرسالية والشيخ مبارك حاكم الكويت إلى أن توصلت الإرسالية إلى الحصول على موافقة منه بفتح مستشفى سنة ١٩١٣م وأعطاه الشيخ قطعة أرض مجاورة لقصره ليقموا عليها منزلاً لهم، وتدخل القنصل البريطاني ليكون وسيطاً لهم عند الشيخ بضمان الولاء وعدم المعارضة، وظلت هذه الإرسالية تباشر نشاطها بالمنطقة إلى وقت قريب.

د- ولعل أحدث مركز أنشئ للتبشير في هذه المنطقة هو في قطر، حيث قدم إليها القس "جريت بينتجز والدكاترة هاريسون، وديم، وتوماس، والأنسة كورنيليا دالنبرج لتفقد معالم المنطقة ودراسة أحوالها، وفي سنة ١٩٤٥م حضر إلى قطر القس ج. فان بيرسم" لأفتتاح مستشفى وبعض المراكز الطبية في قطر ووجدوا في هذا فرصة جيدة لمزاولة نشاطهم، وطلب منهم الشيخ أن يضعوا تصميماً لمستشفى سيعهد بإدارتها إليهم وفي خريف سنة ١٩٤٧م، أصبح المستشفى جاهزاً للعمل، ولكن هذه الخدمات الطبية لم تستمر طويلاً في قطر ففي سنة ١٩٥٢م اضطرت الإرسالية أن تتوقف عن نشاطها تماماً في قطر حيث عادت المستشفى إلى حكومة قطر وأصبحت الإرسالية غير آمنة على نفسها فتوقفت عن العمل تماماً في هذا البلد (١٣).

(١٢) السابق، ص ٦٣.

(١٣) المصدر السابق، ص ٧٠.

هذه فكرة موجزة عن تاريخ التبشير بالمنطقة العربية خاصة منطقة الخليج العربية، ومن المعلوم أنه في عصر الاستعمار الحديث، نشطت عملية التبشير في الأقطار الإسلامية التي احتلتها دول الغرب، وفرضت سيطرتها السياسية والثقافية على أهلها، وجلب الاستعمار معه كثيراً من المبشرين وسدنة الكنائس، يقول الأستاذ أحمد دنفو في كتابه التبشير في منطقة الخليج " .. في عام ١٨٧٠ : وسعت البعثة التبشيرية التابعة للكنيسة الإصلاحية في أمريكا مجال نشاطها في العراق حيث كانت تباشر أعمالها في منطقة الخليج عن طريق تقديم الخدمات الطبية والتعليمية، كما أن الكنيسة الأنكليكانية ارتبطت وجودها بالجيش البريطاني في منطقة الخليج، بينما وصلت الكنيسة الكاثوليكية عن طريق الهند وأفريقيا الشرقية، وقد أسس عدد كبير من موظفي شركات النفط كنائس على المستوى المحلي، وآخر الكنائس التي أسس في الخليج العربي كانت تلك التي أسسها العنال المهاجرون من الهند وباكستان" (١٤).

أهم الوسائل :

١- من أهم الوسائل التي يسلكها المبشرون في منطقة الخليج أنهم يركزون على الجوانب الاجتماعية لخدمة المنطقة، ومما ساعدهم على سهولة الأخذ بهذه الوسيلة أن المنطقة الخليجية قبل ظهور النفط فيها كانت تعيش حياة البداوة، فالجهل هو الصفة الغالبة على سكان المنطقة، والفقر المتقع كان واقعاً يعيشه معظم السكان

(١٤) التبشير في منطقة الخليج، ص ٥، أحمد نون دنفو.

خاصة الذين يعيشون في البوادي أضف إلى ذلك الحالة الصحية والرعاية الطبية المتدنية، وهذا كله جعل النشاط الطبي وسيلة مناسبة وميسورة وبعيدة عن الشبهات، وعن طريق المستشفيات والعيادات العامة يسهل اللقاء المباشر مع سكان المنطقة المسلمين رجالاً ونساءً، فكان المريض إذا ذهب إلى المستشفى لا يسمح له بلقاء الطبيب إلا بعد أن يؤدي الصلاة المسيحية بالكنيسة الملحقة بالمستشفى، ولا يصرف له العلاج إلا بعد لقاء مباشر مع الراهب أو الراهبة. وهذا جعل للهيئات الطبية بالمنطقة وضعاً ممتازاً بين سكان المنطقة، حيث كان المسلم والمسلمة هما اللذان يطلبان لقاء الطبيب والطبيبة، ويسعيان لمقابلتهما، والسماع منهما والجلوس إليهما حيثما كانا، وهذا جعل المستشفى والمستوصف من أخطر مراكز التبشير في منطقة الخليج، ولعل أكبر مثال على ذلك مستشفى بعثة الآتحد الإنجيلي في الإمارات العربية المتحدة فإن نشاطها لا يقتصر على المرضى المقيمين بها فقط، وإنما تعدى ذلك إلى إقامة الندوات لعامة التي تعقد في القاعة المعدة لذلك، كما أسست المستشفى مكتبة خاصة لبيع الكتب والمطبوعات المسيحية، وفي كل غرفة منها تقدم اشربة التسجيل للكتاب المقدس وسماع موعظة الأحد.^(١٥)

٢- ومن وسائل المبشرين عموماً - وفي الخليج بصفة خاصة - العلاقات الشخصية والصدقات التي تتم بين الأفراد والعائلات في

داخل المنطقة وخارجها، ومن أبرز المبشرين بهذا الجانب مجموعة صانعي الخيام فى أماكن العمل المختلفة، واحتكاكهم المباشر مع أصحاب الأعمال ومع العمال أيضاً.

٣- يأتى بعد ذلك دور المطبوعات فى عملية التبشير وتوزيعها بالمجان، فهناك عدد كبير من المكتبات المسيحية تقوم بهذه المهمة، وهناك المطبوعات التى توزع على البيوت سرّاً وهى أشبه بالمواعظ الإنجيلية والترانيم اللاهوتية يجدها الشخص أمام بيته فى الصباح أو ملصقة على الجدران.

٤- الإذاعات التبشيرية المنتشرة حول العالم الإسلامى وفى داخله، وهى أكثر الوسائل الحديثة فعالية فى الاتصال بالمسلمين، وهناك أجهزة إعلامية متخصصة فى إنتاج البرامج التبشيرية الموجهة إلى المسلمين، ولعل من أهم هذه الأجهزة شركات الإنتاج الإعلامى الموجودة فى لبنان وفرنسا وأسبانيا، وفى جزيرة سيشل، وبعض هذه الشركات تبث برامجها من راديو عبر العالم من موناكو ومن قبرص كما أن راديو الفاتيكان يبث برامجه التبشيرية باللغة العربية. ولعل أنشط هذه الشركات الآن راديو مونتوكارلو الذى يبث برامجه التبشيرية بعد الساعة الحادية عشر مساءً عادة.

٥- المؤسسات التربوية التعليمية، مثل دور الحضانة والمدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعات الأمريكية المنتشرة فى

العالم الإسلامي، وهذه المؤسسات يختلف نشاطها قوة وضعفاً حسب المنطقة التي تعمل بها، فعلى سبيل المثال نجد أن أنشطة المدارس العاملة في دول الخليج مدارس كاثوليك في أبى ظبي، ومدرسة الإرسالية الأمريكية التي كانت تعمل في البحرين.

٦- يضاف إلى ما سبق دور الصحافة والفنون والبعثات التعليمية وما يترتب على ذلك من نشر أفكار لتزييف التاريخ الإسلامي أحياناً واستغلال الواقع المؤلم للعالم الإسلامي أحياناً أخرى ومحاولة ربط ذلك التخلف بالإسلام.

ولقد قامت الصحافة بأخطر الأدوار التبشيرية في المنطقة العربية والإسلامية على وجه العموم، فلقد هاجر إلى مصر كثير من الموارنة اللبنانية بدعوى زائفة ومكشوفة وهي طلب الأمان في مصر بلد الحرية والنور. هكذا كانوا يبررون هجرتهم إلى مصر. ولازالوا. ولكن قد أثبت الواقع عكس ذلك تماماً. فقد كان الموارنة خريجي الأديرة والكنائس والمدارس التبشيرية الذين حملوا معهم بذور الفتن وأساليب التصير في ربوع مصر، وأخذوا يباشرون نشاطهم تحت حماية الاستعمار الأجنبي الذي كان مسيطراً على كل مرافق الحياة في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، وكان نشاط الموارنة المهاجرين شديد الأثر، فلقد هياأ الوجدان المصري للاستعمار الثقافي، ولقد أشار إلى هذه الحقيقة المؤرخ الأمريكي بيترجران حيث قال : لقد سعت فرنسا إلى زرع فئة من التجار

المارونيين الشوام في الاسكندرية ودمياط ورشيد، تحت حماية النفوذ الأجنبي، وكان لهؤلاء بعض الصحف التي أطلق عليها عبد الله النديم صحف الأجراء وكان يسمى ما ينشرونه بالقاذورات. (١٦)

وقام جرجى زيدان بتأسيس دار الهلال بمصر وهي مؤسسة تبشيرية خالصة وكذلك أنشأوا مجلة الكاتب المصري، وقيل أنها تأسست بأموال صهيونية.

أما جريدة الأهرام فتأسست بيد صليبية خالصة وكان من بنود تأسيسها ألا يعمل بها إلا النصارى ولا يقوم بتوزيعها إلا النصارى، وكان من أكبر مؤسسيها بشارة تقلا وإخوانه الذين هاجروا إلى مصر سنة ١٨٧٣ هـ تحت حماية الحملة الفرنسية، وكان صاحب دور كبير في تأليب الإنجليز ضد عرابى، وكان قلمه مدافعاً عن الإنجليز أحياناً، وعن الفرنسيين أحياناً أخرى ولقد سجل عرابى فى مذكراته كيف خدعه بشارة تقلا. فقد كان مؤمناً بمبادئ عرابى، أو هكذا كان يتظاهر، يقول عرابى: "وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تقلا محرر جريدة الأهرام، وظننت أنه قدم ليعزىنى ويبدى عواطفه نحوى لأنه قد أقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا يعمل لحرية وطننا.. ولكنه لما دخل على توقع أشد التوقع، ثم قال: أى عرابى: ماذا فعلت وماذا حل بك ورأيت أن الرجل خائن لا محالة" هكذا يقول عرابى عن بشارة تقلا مؤسس جريدة الأهرام.

(١٦) راجع بحث أ. د. عبدالعظيم الديب، الندوة العربية، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣ م.

والدور الذي لعبه تقلا ورفاقه لا يقل عنه ما قامت به مؤسسة جرجى زيدان في مصر، فتحت ستار التتوير والنهوض والتقدمية، زلزلت كثيراً من ثوابت لقيم في الشارع المصري الحديث واستطاعت أن ترسخ في وجان الأمة العربية كثيراً من الأكاذيب وتعمل على الترويج لها، مثل قولهم بأن الحملة الفرنسية هي بداية عصر النهضة في مصر، أو أن الخلافة العثمانية تمثل عصر الظلام، وأن اتصالنا بفرنسا هو الذي علمنا معنى الحرية وأخذ بيدنا في سلم الحضارة.. الخ^(١٧).

العمالة المهاجرة في ظل الكنيسة :

لعل منطقة الخليج العربي أهم مناطق العالم المعاصر بالنسبة لجذب العمالة من الخارج نظراً لظروفها الاقتصادية والاجتماعية، ولقد عقد في بيروت سنة ١٩٧٩م مؤتمراً نظّمته إحدى الهيئات التبشيرية عن أوضاع منطقة الخليج ودور العمالة المهاجرة إليها، ولاحظت هذه الهيئة (MECC) أن ٨٠٪ من سكان هذه المنطقة هم في الأساس من العمالة المهاجرة وأن أوضاع هذه العمالة تدعو للقلق والاهتمام بها وبدورها الإيجابي في تغيير الشكل السكاني للمنطقة، وترتب على هذا الموقف أن أعدت هذه الهيئة دراسة للشكل السكاني ومحاولة التعرف على نسبة العمالة المهاجرة ودياناتها وقام بعض القسس بتنظيم زيارات عدة لدول المنطقة والعمل على تأمين العمل

(١٧) راجع البحث الذي كتبه أ. د عبدالعظيم الديب، في ندوة الثقافة العربية، جامعة قطر، سنة ١٩٩٣م.

لبعض القسس والمربين المسيحيين الذين يتكلمون اللغة العربية لقيادة العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة.

ولقد أعدت أمانة السر المنبثقة عن مؤتمر الكنائس العالمي وثائق عن هؤلاء المهاجرين لدراستها والعمل على أساسها. وبناء على دراسة هذه الوثائق أعلن مؤتمر الكنائس سنة ١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس أن تدافع عن حقوق هؤلاء العمال المهاجرين وتسعى لتحسين أوضاعهم، ولقد أنشأ هذا المؤتمر لجنة لمتابعة أحوال هذه العمالة ومتابعة تنفيذ قراراته بشأنها وأجرى استطلاع للرأى العام الكنائسى حول الأمور الآتية :

- ١- مدى استجابة الأسرة الدولية لنداء مؤتمر الكنائس المنعقد فى أفريقيا وفى آسيا وفى الشرق الأوسط بشأن حقوق هذه العمالة.
- ٢- أيسر السبل لمتابعة أحوال العمالة المهاجرة فى الخليج والوقوف على ما يلاقونه من صعوبات.
- ٣- كيف يمكن للكنائس البروتستنتية والكاثوليكية والأرثوذكسية أن تؤمن رسالة العمالة فى منطقة الخليج^(١٨).

وقدرت هذه الهيئة عدد العمال المسيحيين المهاجرين إلى المنطقة رجالاً وإناثاً فى جميع مستويات العمالة يتراوح بين ٥ و ٢-٣ مليون مسيحي معظمهم من دول آسيا وأفريقيا، ولقد أعدت هيئة الأمانة العامة للهجرة فى مؤتمر الكنائس العالمى وثائق عن هؤلاء

(١٨) راجع التبشير المسيحي فى منطقة الخليج، بقلم أحمد فون دنقر، ص ٣٢-٣٥.

المهاجرين لدراستها والعمل على أساسها، وقد قرر المؤتمر العام للكنائس سنة ١٩٧٥م أنه يجب على الكنائس المختلفة خاصة التي لها فروع في بلاد الخليج العربي أن تدافع عن حقوق العمالة المسيحية المهاجرة إلى المنطقة والعمل على تحسين أحوالهم.

ولقد صدر حديثاً كتاب عن منظمة عالمية تعمل في باكستان عنوان "صل يوماً pray day by day" لنشر المسيحية في منطقة الخليج ولتقوية الكنيسة بين العمال المهاجرين وخاصة القادمين من باكستان، ومن بين الصلوات المطلوبة أن يصلوا من أجل فتح مركز للدارسين للإنجيل بالمراسلة من الباكستانيين والهنود في الخليج العربي ولتتمية برامج الإذاعة.

ومما سهل للمبشرين عملهم في المنطقة أنهم يعتمدون في تنفيذ برامجهم على هذا العدد الضخم من العمالة غير المسلمة، بالإضافة إلى أن آخر احصائية لعدد المبشرين في الشرق الأوسط قد بلغ ١٣٠٠ ويذكر الإنجلييون أن عدد المبشرين في منطقة الخليج حوالي ٨٠ مبشراً بروتستانتياً معظمهم يحمل في المراكز الطبية.

كما أن هناك عدداً كبيراً منهم يعملون في المجالات الفنية والصناعية دون أن يعلنوا عن هويتهم وليس من السهل التعرف على طبيعة نشاطهم.

نشاطهم في مصر :

ونجد أن الاستعمار البريطاني بعد أن استقرت له الأمور في مصر لم يغيب عن ذهنه هذا الدور التبشيري، وكان من أبرز

الشخصيات التي كان لها الدور الرائد في محاربة الإسلام والمسلمين بمصر "اللورد كرومر" المندوب السامي البريطاني، وكان يتميز بالدهاء والعداء للإسلام ولغته العربية، فعمل منذ أول عهده بمصر على تغريب الحياة الثقافية والسياسية والتعليمية ومناهجها، وكان له الدور الأكبر في تثبيت دعائم الإستعمار بمصر وقد وضع "كرومر" مخططه التبشيري والإستعماري معاً في كتابه "مصر الحديثة" الذي ضمنه آراء وأهداف من الوجود البريطاني في مصر، ومن أهم القضايا التي أثارها "كرومر" في هذا الكتاب ما يأتي:

١- التركيز على إظهار أن سبب تأخر المسلمين يرجع إلى تمسكهم بالإسلام، وأن تعاليمه تتنافى مع المدنية الحديث، والحضارة والعلم.

٢- ليس أمام المسلمين من طريق إلى المدنية الحديثة إلا بالتخلص من الإسلام وتعاليمه.

٣- محاولته الدؤوب ارجاع كل مشاكل التخالف الموجود في العالم الإسلامي السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى تعاليم الإسلام.

وقد امتد نشاط "كرومر" إلى لغة القرآن الكريم، حيث نادى بضرورة إلغائها والأخذ باللغة العامية، وجعل لغة القاهرة هي اللغة الرسمية وإحلالها محل اللغة الفصحى في الكتابة والدواوين الحكومية، وهذا الرأي قد عارضه الرأي العام بمصر في وقتها، غير أنه قد وجد عند بعض المستعربين أذنأ صاغية فنادوا بالعامية من خلال الصحف خاصة صاحب "المقتطف" وألف المستشرق "ولمور"

أحد قضاة المحاكم المختلطة بمصر كتاب "لغة القاهرة" فوضع قواعد اللغة العامية القاهرية ونادى بوجوب إحلالها محل لغة القرآن، ثم انتقلت هذه الدعوة المسمومة إلى المستر "وليم ولكوكس" المهندس البريطاني الذي كان بوزارة الري والزراعة بمصر، فدعا إلى هجر الفصحى وإحلال العامية محلها، وكادت هذه القضية أن تجد لها مكاناً في بعض المكاتبات الرسمية : لولا وقوف الرأي العام في وجهها وفطنة المسؤولين إلى خطورة هذه الدعوة المسمومة في القضاء على أهم رابطة بين المسلمين والعرب وهي لغة القرآن الكريم.

ومما هو جدير بالذكر هنا، الإشارة إلى ما قام به القسيس "دانلوب" المستشار البريطاني لوزارة المعارف الذي حاول جاهداً أن يجرّد مناهج التعليم في مصر من سماتها الإسلامية في كثير من المواد الدراسية، فأنشأ عدداً كبيراً من المدارس الإنجليزية تدرس جميع موادها بلغة المستعمر، وكانت هذه المدارس تبدأ نشاطها المدرسي كل يوم بالصلاة في كنيسة المدرسة وأوصى "دانلوب" أن تكون حصص المواد الشرعية واللغة العربية في المدارس الحكومية في نهاية اليوم الدراسي، بعد أن يكون التلميذ قد أصابه الملل والسآمة، وظلت المناهج الدراسية التي وضعها دانلوب لوزارة المعارف المصرية تعمل عملها في تخريج أجيال مبتوتة الصلة بالإسلام وقضاياها إلى وقت قريب، والتقت أهداف "كرومر" و"دانلوب" في محاولة إبعاد الحياة الثقافية والتعليمية في مصر عن روح الحياة الإسلامية وحاول كل منهما جذب بعض الشخصيات إلى هذا التيار

العلماني الصليبي ولكن هذه المحاولات كانت تبوء بالفشل في معظم الأحيان.

مؤتمرات التبشير :

يعقد المبشرون كثيراً من المؤتمرات في العالم الإسلامي لرسم الخطط التبشيرية المناسبة وتقويم العمل في الفترات السابقة ومحاولة معالجة ما شابها من قصور أو تقصير، هذا بالإضافة إلى وضع المؤلفات المستقلة التي ألفها المبشرون لوضع خريطة كبرى للتبشير العالمي على مستوى جميع الشعوب غير المسيحية، ومن أهم هذه المؤلفات ذلك البحث الخطير الذي كتب مقدمته المسيو شاتيليه "وضمنه مجلة "العالم الإسلامي" الفرنسية المصورة فأصدرت هذه المجلة عدداً ضخماً سنة ١٩١١م ليس فيه غير هذا البحث الضخم الذي وضعه شاتيليه وكان يدور كله حول ما تقوم به الإرسالية التبشيرية البروتستانتية في العالم الإسلامي وتضمنت هذه المقدمة الدور الذي تقوم به كلية القديس يوسف اليسوعية في بيروت في نشر تعاليم الإنجيل في سوريا ولبنان، ثم جاء كتاب تاريخ التبشير للمستتر "أدوين بلس" البرتستانتى الذى تضمن تاريخ التبشير فى العالم الإسلامى حتى أواخر القرن التاسع عشر، ومن أهم الشخصيات التى برزت فى تاريخ التبشير الحديث القسيس صموئيل زويمر. الذى كتب بحوثاً متعددة عن التبشير ووسائله فى جزيرة العرب وقد بين زويمر فى بحوثه أهمية الالتفاف حول جزيرة العرب التى هى مهد الإسلام وأشار إلى ضرورة الربط بين مصالح المبشرين فى بيروت وسوريا

ومكة والمدينة لأن ذلك سوف يمهد للمبشرين النفاذ إلى هاتين
المدنيتين المقدستين عند المسلمين، كما لفت زويمر نظر المبشرين
إلى أهمية الانتشار في جزر ماليزيا وأندونيسيا ليتمكن تخليصها من
قبضة المسلمين وأشار إلى ضرورة عقد مؤتمر لمراجعة أعمال
المبشرين والتعرف على المشاكل التي يواجهونها، ووضع الخطط
المناسبة في المستقبل.

١- مؤتمر المبشرين بالقاهرة سنة ١٩٠٦م :

اجتمع في هذا المؤتمر معظم الإرساليات التبشيرية في المنطقة
برئاسة "زويمر" وافتتح المؤتمر بتاريخ ٤ أبريل سنة ١٩٠٦م، وكان
عدد مندوبي الإرساليات التبشيرية قد بلغ ٦٢ مندوباً رجالاً ونساءً،
وتم انتخاب زويمر رئيساً عاماً للمؤتمر، وكان من أهم المسائل التي
طرحت على هذا المؤتمر الأمور التالية :

- ١- احصاء لعدد المسلمين في العالم.
- ٢- وضع الإسلام والمسلمين في شرق وجنوب شرق آسيا.
- ٣- منهج التعامل مع المسلمين المنقذين والمسلمين العوام.
- ٤- دور المرأة وشؤون النساء المسلمات.

وقد جمعت أعمال المؤتمر في كتاب مستقل نشر باسم "وسائل
التبشير بالنصرانية بين المسلمين" جمعه القسيس فلمنج الأمريكي
وكتب عليه من الخارج عبارة "نشر خاصة" ليكون الكتاب قاصراً في
تداوله على فئة خاصة من المشتغلين بالتبشير.

وضمن هذا الكتاب بعض التوصيات التي رفعها إلى الحكومات المعنية، ومن أهم هذه الاقتراحات محاولة الالتفاف حول الأزهر في مصر لأنه مفتوح لكل الطلاب من العالم كله وأنه لا يخضع في تمويله لأي حكومة لأن أوقاف الأزهر تدر دخلاً كبيراً يساعد العالم والمتعلم فيه، ولا بد من العمل على تقليص دوره، ولنبدأ ذلك بإنشاء جامعة نصرانية تشارك في الإنفاق عليها جميع الكنائس المسيحية على اختلاف مذاهبها لأن في التخلص منه مصلحة لجميع الكنائس بلا استثناء، ولقد قام زويمر بعمل خريطة أسماها "خريطة تنصير العالم الإسلامي" في هذا العصر ووزع أعداداً كبيرة منها على كبار المسؤولين في الحكومات الغربية وكتب على كل نسخة نداء إلى المسؤولين لعله يجد صدى له في أوروبا وأمريكا، وعرض هذه الخريطة على المؤتمر وضمنتها كتابه "العالم الإسلامي اليوم" وكان من أهم ما نصح به زويمر في كتابه هذا إثارة بعض المشكلات الاجتماعية وطرحها في الندوات واللقاءات الثقافية كمشكلة الطلاق والتعدد، وإرث المرأة ولماذا يكون نصف الرجل، كما أوصى بالعمل على أن يجتهد المبشرون في إيجاد أصدقاء لهم من المسلمين يقومون بنشر هذه الأفكار بين المسلمين ليتحولوا فيما بعد إلى مبشرين بتعاليم المسيح نيابة عن النصارى ومن أهم أعمال زويمر التبشيرية:

١- تقرير أهداف التبشير الذي قدمه المؤتمر الذي عقد بالهند سنة ١٩١١ وصرح فيه بأن هدف التبشير ليس هو تنصير المسلم فقط وإنما الأهم من ذلك التنكر لتعاليم الإسلام.

٢- التقرير الذى نشره فى ١٢ أبريل سنة ١٩٢٦م ويشير فيه إلى تلك الجهود الكبيرة التى بذلها المبشرون والمصاريف الباهظة التى انفقوها ولم تؤت ثمرتها ولذلك يجب التفكير فى تطوير وسائل التبشير ومناهجه، ومما جاء فى هذا التقرير قوله: .. وعندى أنه قبل أن نبني النصرانية فى قلوب المسلمين يجب أن نهدم الإسلام فى نفوسهم، حتى إذا أصبحوا غير مسلمين سهل علينا أو على من يأتى بعدنا أن يبنوا النصرانية فى نفوسهم.

٢- مؤتمر القدس سنة ١٩٣٥م :

عقد هذا المؤتمر تحت حماية الاحتلال البريطانى لفلسطين وكان أبرز المتحمسين فيه بالعداء للإسلام "زويمر" وألقى خطبته على الحاضرين من المبشرين، ومن المهم للقارئ أن أضع أمامه نص هذا الخطاب ليعرف كيف تلتقى مصالح التبشير والاستعمار مع مصالح اليهود فى فلسطين ليجمعهم هدف واحد هو التخلص من الإسلام : قال زويمر :

أيها الإخوان الأبطال والزملاء الذين كتب الله لهم الجهاد فى سبيل المسيحية واستعمارها لبلاد الإسلام، فأحاطتكم عناية الرب بالتوفيق الجليل ولقد أديتم الرسالة التى نيظت بكم أحسن الأداء.. إننى أقركم أن الذين دخلوا حظيرة المسيحية من المسلمين ليسوا بمسلمين حقيقيين، لقد كانوا كما قلت ثلاثة.

إما صغير لم يكن له من أهله من يعرفه ما هو الإسلام،

أو رجل مستخف بالأديان لا يهتم بغير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر، وعزت عليه لقمة العيش،

وثالث يبغي الوصول إلى غاية شخصية .. إن المهمة التي ندبتكم إليها دول المسيحية في البلاد المحمدية ليست هي إدخال المسلمين في المسيحية، فإن هذا هداية لهم وتكريماً، وإنما مهمتكم أن تخرجوا المسلم من الإسلام ليصبح مخلوقاً لا صلة له بالله، وبالتالي لا صلة تربطه بالأخلاق التي تعتمد عليها الأمم في حياتها، وبذلك تكونون بعملكم هذا طليعة الفتح الاستعماري في الممالك الإسلامية، وهذا ما قمتم به خلال الأعوام المائة السالفة خير قيام، وهذا ما أهنتكم عليه وتهنتكم عليه دول المسيحية.. ولقد قبضنا أيها الإخوان في هذه الحقيقة من الدهر.. على جميع برامج التعليم في الممالك الإسلامية، ونشرنا في تلك الربوع مكامن التبشير والكنائس والجمعيات والمدارس المسيحية الكثيرة التي تهيمن عليها دول أوروبا وأمريكا.

أيها الزملاء : إنكم أعددتكم في ديار الإسلام شباباً لا يعرفون الصلة بالله ولا يريدون أن يعرفوها، وأخرجتم بعضهم من الإسلام ولم تدخلوه المسيحية، وبالتالي جاء النشء الإسلامي طبقاً لما أراده الاستعمار لا يهتم بالعظام، ويجب الراحة والكسل ولا هم له في ديناه لا الشهوات..

فإذا تعلم فللشهووات، وإذا جمع المال فاللشهووات، وإذا تبوأ أسمى المراكز فللشهووات، وفي الشهوات وجود بكل شيء.. باركتكم المسيحية ورضى عنكم الاستعمار، فاستمروا في أداء رسالتكم، لقد أصبحتم بفضل جهادكم موضع بركات الرب"^(١٩).

(١٩) من كتاب : المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام: محمد محمود الصواف، ص٥٨-٥٩، نقلًا عن : قوى الشر المتحالفة : محمد الدهان ص١١٢-١١٥.

المراجع

- ١- المستشرقون، نجيب العفيفي.
- ٢- الاستشراق والاستشراق معكوساً، ادوارد سعيد.
- ٣- المستشرقون ومناهجهم : مجموعة بحوث ودراسات عن موقف المستشرقين من الفكر الإسلامي وقضاياها.
- ٤- التبشير في منطقة الخليج العربي، د. عبدالملك خلف التميمي ط. الكويت سنة ١٩٨٢م.
- ٥- قوى الشر المتحالفة ..التبشير والاستشراق، محمد الدهان، دار الوفاء بالقاهرة.
- ٦- التبشير المسيحي في منطقة الخليج : أحمد فون دنقر، سلسلة دراسات تاريخية إسلامية.
- ٧- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي : د.محمد البهي ط. وهبة، سنة ١٩٨٥م الحادية عشر.
- ٨- التبشير والاستعمار في البلاد العربية : دكتور مصطفى خالدى د. عمر فروخ.
- ٩- التبشير والاستشراق : محمد عزت الطهطاوى طبع مجمع البحوث الإسلامية، سنة ١٩٧٧م.
- ١٠- التعصب الأوربي أم التعصب الإسلامي، بحث لشكيب ارسلان، طبع ضمن كتاب حاضر العالم الإسلامي : تأليف لوثرروب استودارد الأمريكى، ترجمة : عجاج نويهض.

١١- الغارة على العالم الإسلامي، محب الدين الخطيب، ط. السلفية بمصر.

١٢- رسائل بولص الأنطاكي في : أصول العقيدة المسيحية والرد على المسلمين والقرآن. وهي عبارة عن ٢٢ رسالة في الرد على بعض آيات القرآن وتأليه المسيح ومناهضة المسلمين، ط معهد الآداب الشرقية، ببيروت، النص العربي، وخلص به النص بالفرنسية.

١٣- التصوف الإسلامي، نيكلسون ترجمة أبو العلاء عفيفي.

١٤- مذاهب التفسير الإسلامي : جولدتسيهر، ط. القاهرة.

١٥- تاريخ الفلسفة الإسلامية : ديبور، ترجمة د. محمد عبدالهادي أبو ريده، ط. القاهرة.

١٦- الفكر الإسلامي بين الأصالة والتقليد، د. محمد الجنيد، بحث نشر بمجلة الثقافة المصرية، سنة ١٩٧٧م.

١٧- الفكر الإسلامي في الرد على النصارى، عبدالمجيد الشرفي، ط. تونس سنة ١٩٧٧م.

١٨- المخططات الاستعمارية لمكافحة الإسلام : محمد محمود الصواف.

١٩- المبشرون والمستشرقون د. محمد البهي، ط. القاهرة مكتبة وهبة.

فهرس

الصفحة	الموضوع
١٠	الاستشراق والمستشرقون
٢٥	موقف المستشرقين من الفكر الإسلامى
٥٨	الفكر الإسلامى بين الأصالة والتقليد
٩٥	سياسة التنصير فى العالم الإسلامى
٩٦	تبشير أم تنصير
١٠١	بين الاستشراق والتنصير
١١٠	الوسائل والمؤسسات التبشيرية
١٢٠	العمالة المهاجرة فى ظل الكنيسة
١٢٥	مؤتمرات التبشير
١٣٠	المراجع

بسم الله الرحمن الرحيم

تم تحميل الملف من

مكتبة المهتدين الإسلامية لمقارنة الأديان

The Guided Islamic Library for Comparative Religion

<http://kotob.has.it>

<http://www.al-maktabeh.com>



مكتبة إسلامية مختصة بكتب الاستشراق والتنصير
ومقارنة الأديان.

PDF books about Islam, Christianity, Judaism,
Orientalism & Comparative Religion.

لا تنسونا من صالح الدعاء

Make Du'a for us.